علماء العرب 24

الوزان

رائد الموسوعات الافريقية

تأليف : سليمان فياض
رسوم : اسماعيل دياب

منشورات ANEP

علماء العرب

الـــــوزان

رائد الموسوعات الافريقية

تأليف : سليمان فياض
رسوم : اسماعيل دياب

الكتاب: الوزان
سلسلة علماء العرب
المؤلف: سليمان فياض
تصميم الغلاف: بديعة ميدات
الناشر: منشورات ANEP

50، شارع خليفة بوخالفة - الجزائر
الهاتف/فاكس: 61 89 23 21 213 / 85 64 23 21 213
الهاتف: 32 68 23 21 213 / 16 89 23 21 213
فاكس: 90 64 23 21 213
e-mail: editionsanep@yahoo.fr

الطبعة الأولى 2006
ISBN : 9947-21-280-7
Dépôt légal : 1700-2006

جميع الحقوق محفوظة لمركز الأهرام للترجمة والنشر

الكُتّاب

ضُحَى يوم ٍربيعيّ كانَ «محمّدُ الزيّاتِي الوزان» جالسًا مع زَوجَتِه «سَلمَى» وابنِه «الحَسَنُ» وابنَتُه «مَريَمُ»، في شُرفَةِ بَيتِه بمدينةِ «فاس». كانُوا يَتناولون طعامَ الإفطارِ. وكانَ الطّعامُ خبزًا صغيرًا

مقليًا بالسَّمنِ، ومُحلَّى بالعَسَلِ، ولحمَ ماعزٍ مَشويّ. وكانَتْ تهبُّ علَى الشُّرفةِ البَيضاءِ معَ النّسيمِ، روائحُ الزُّهورِ مِن الورودِ والفُلِّ والياسَمينَ.

وقالَ الحسنُ بحزنٍ لأبيهِ:

– ماتتْ جدّتي، يرحمُها اللّه، منذُ شهورٍ. ولمْ أعُدْ أنَا وأُختي، نجدُ مَنْ نلعبُ معَهُ في النّهارِ، ويَحكي لَنَا الحِكاياتِ في اللّيلِ. ونُريدُ الذّهابَ إلى الكُتّابِ، لنَحفظَ القُرآنَ، ونَتلَّمَ القِراءَةَ والكِتابةَ والحِسابَ.

وكانَ الحَسَنُ قَدْ بلَغَ مِنَ العُمرِ سبْعِ سنواتٍ. ظَهَرَ الفرحُ علَى وجهِ الأبِ، وقبّلَ الحَسَنَ، وقالَ لَهُ:

– اليومُ يومُ الجمعةِ، وغدًا أصحبُكُما إلى أفْضلِ كَتاتيبِ فاسٍ.

عِندئذٍ تَصايَحَ الحسنُ ومريمُ فرحًا، وجَرَيَا معًا ليَلعبَا في حَديقةِ البيتِ، يُطارِدَا الفراشَ.

وقالَ محمّدٌ لسَلْمَى:

– علَى بعدِ ستّةِ أميالٍ مِن فاسٍ، توجدُ أرضٌ بلا زَرْعٍ، وبالقُربِ مِنها مجرى ماءٍ، وبِها قصرٌ مهجورٌ، وقَد قررتُ شراءَ هَذا القصرِ، وتِلكَ الأرضِ، وزراعَتِها بالزَّيتونِ والمَوالحَ (الفواكه) مِن بُرتقالٍ

ولَيْمونٍ. ثمَّ ندّخرُ ما يَبْقَى معَنا، مِن المالِ الذي نجحْنا في الهُروبِ به مِنْ غرنَاطَةَ (بالأندلُسِ)، قبلَ أربَعِ سَنواتٍ، بعدَ سقوطِها في يدِ الفِرنْجة.

فقالتْ سَلْمى لزوْجِها:

– لِي شرطٌ واحدٌ يا أبَا الحسنِ، ألاّ نذهَبَ إلى تلكَ الأرضِ إلاّ في الصَّيفِ لنعيشَ شهورَ الحَرِّ، وأبقَى أنا مَعَ الولدَيْنِ في فاسٍ، بقيّةَ شهورِ العامِ، مِن أجلِ الحسنِ ومريمَ، والكُتّابِ.

فقالَ مُحمّدٌ لزوجتِهِ:

– ذَلكَ ما عَزَمْتُ عليهِ يا سَلْمى، فلا يُوجَدُ كُتَّابٌ في هذِهِ الأرضِ البعيدةِ عن فاسٍ.

صديقُ العمرِ

في الكُتّابِ، تعرّفَ الحسَنُ ومريمُ، علَى زَميلِهِمَا الصبيِّ «هارون» وكانَ هارونُ ابنًا لحمّالٍ. وبيْنَ الثّلاثةِ نَمَتِ الصّداقةُ معَ الأيّامِ، وصارَ الحسنُ يقضِي بَقيّةَ النّهارِ بعدَ الخُروجِ من الكُتّابِ، والغداءِ في البيتِ، معَ هارونَ، الخبيرِ بمدينةِ فاسٍ، ويقضيانِ النّهارَ معًا في التَجَوُّلِ بشوارعِ فاسٍ ودُرُوبِها، وأزقّتِها وحارَاتِها.

وكانَ هارونُ ذا فُضُولٍ شَديدٍ، لمعرفةِ كلِّ شيءٍ بفاس، وعنْ أهلِ فاسَ، حتّى قالَ لهُ الحسنُ يومًا، وهوَ يضحكُ:

– سأسمّيك «هارُونَ المنقّبِ» لأنّكَ تنقّبُ عَنْ كلِّ شيءٍ، وتبحثُ عن كلِّ شيءٍ.

وسَعِدَ كلٌّ مِنَ الحسَنِ وهارُونَ بصُحبةِ الآخرِ وصَداقتِهِ، وهُما لا يُدارِيَانِ أنَّ صداقَتَهُما ستَكونُ صَداقةَ العُمرِ.

وكانتْ فاسُ آنذاكَ، ذاتَ موقعٍ هامٍّ، عَلى مُفترَقِ الطُّرُقِ، بينَ الرِّباطِ وطَنْجةَ مَرّاكِشَ. وكانَتْ تتكوَّنُ مِن مدينتَيْنِ، إحداهُما صارتْ أطلالاً مَهجورةً، عُمرها سبعُمائةُ عامٍ، والأُخرَى حديثةٌ عمرُها مائتَا عامٍ، وكانتْ، في القرنِ السّادسِ عشرَ الميلاديّ، عامرةً بالأسواقِ والحِرَفِ، والتّجاراتِ والحَمّاماتِ، والمَساجدِ الكَبيرةِ والصّغيرةِ، والخانَاتِ (الفنادقِ) والمدارسِ، وكانَتْ لَها ضاحيةٌ يسكُنُها قبائلٌ مِنَ البَرْبَرِ، وأَهلُ الأندلُسِ اللاّجئونَ، القادمونَ من مدائنِ الأندلُس، فِرارًا مِن بَطْشِ الأسبانِ، منذُ سُقوطِ غرناطَةَ، في يَدِ «فرنَاندُو وإيزابيلاّ»، عامَ ألفٍ وخمسمائةٍ واثنينِ وتسعينَ ميلاديّةً. وفي تلكَ الضّاحيةِ كانَ بيتُ المُهاجرِ اللاّجئِ «محمدُ الوزّانِ».

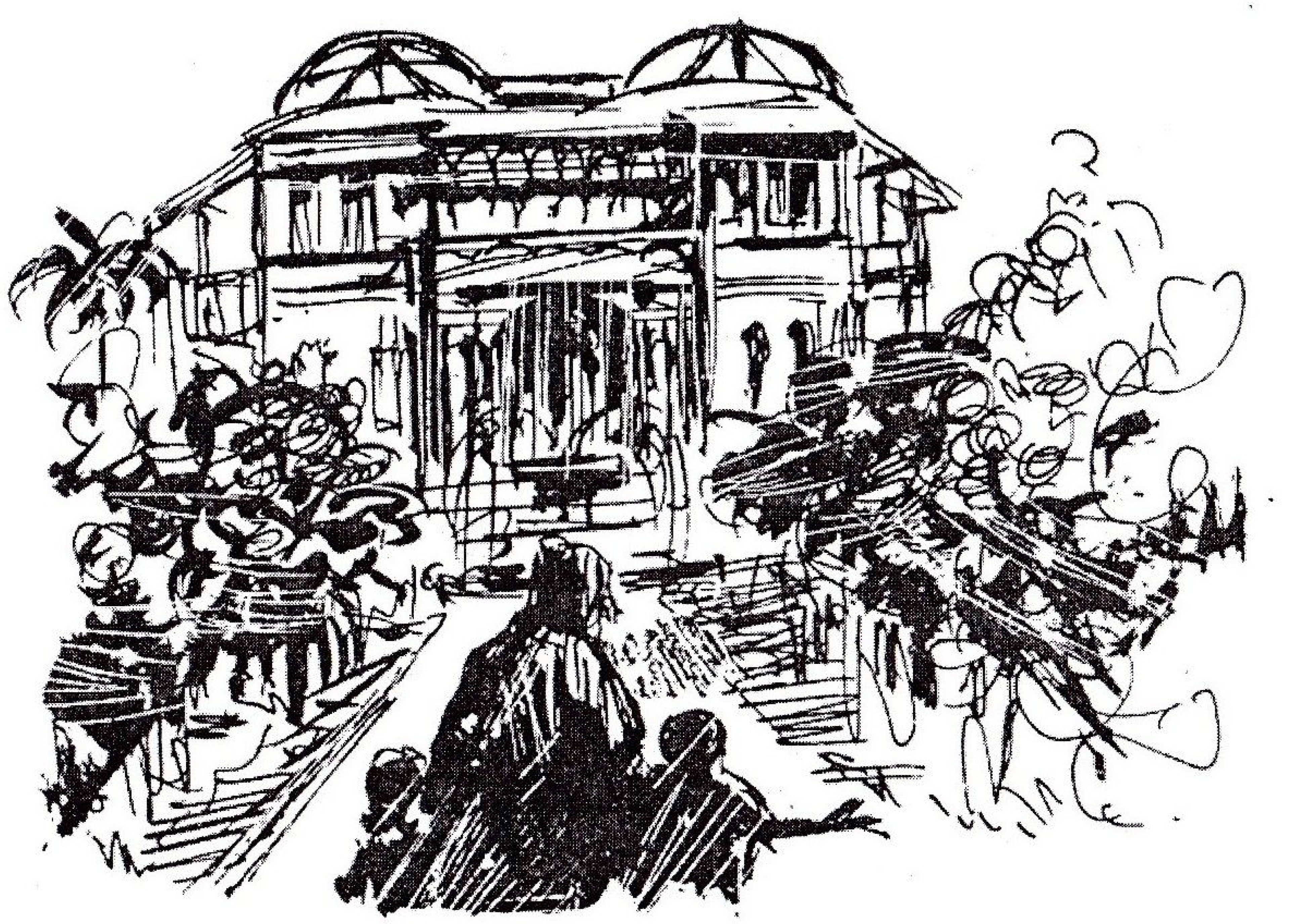

جامعٌ وجامعَةٌ

كانَ الحسنُ قَد بَلَغَ مِنَ العُمرِ عشرَ سَنوات، حينَ أتَمَّ حفظَه للقُرآنِ الكَريمِ، وأجادَ القراءَةَ والحِسابَ، وأقامَتْ لَهُ الأُسرَةُ، ولأختِه مريمَ، حَفلاً صغيرًا، حَضَرَهُ الأقاربُ والأصدِقاءُ. وَوُزّعَت الهَدايَا والصّدَقَاتُ علَى الفُقراءِ.

وَبعدَ يومينِ كانتِ الأُسرةُ كلُّها تَقضي الصَّيفَ، في القَصرِ الذي صارَ عامرًا، والأرضِ التي اخضرّت بالزُّروعِ، وتوَّجَت أغصانَها زُهورٌ مختلفةُ الألوانِ، وثِمارٌ مُتعدّدةُ الأشكالِ والأحجامِ. وكانَ الحَسَنُ سَعيدًا بأنينِ السّاقيةِ، وهِيَ تَدُورُ وتَدورُ، وتروِي الأَرضَ بمياهِ المَجرَى.

ومرّتْ شُهورُ الصَّيفِ، وعادتِ الأسرةُ سَعيدةً إلى فاسَ. وقالَ الأبُ للحسنِ، ومريم:

– غدًا، سَنذهبُ مَعَ اللّيلِ يا بنيَّ، إلى جامعِ القرويّينَ، لتتعلَّمَ علَى أيدي علمائِه، ما تشاءُ مِن علومِ الدُّنيا والدّينِ. وستبقى مريمُ مَعَ أمِّكَ فِي البَيتِ، تُساعدُها في أعمالِهِ.

وفي الغَدِ، وقَد لاحتْ في سَماءِ فاسَ سُحُبُ الخريفِ، دَخَلَ الحسنُ مَعَ أبيه جامعَ القرويّينَ فَرِحًا وخائفًا. وراحَ أبوهُ يطوفُ به أَرجاءَ المسجدِ الضّخمِ. وكانتْ مساحَتُه ميلاً ونصفَ ميلٍ مُربّعٍ، ولهُ ثلاثةَ عشرَ بابًا ضَخْمًا.

وقالَ الأبُ للحسنِ، مُشيرًا إلى جهاتِ المسجدِ الأربعِ:

– هَاهُنا، جهةَ الشّمالِ، يجلسُ عُلماءُ اللّغةِ، وها هُنا، جهةَ الجَنوبِ، يجلِسُ عُلماءُ الدّينِ، وهَا هُنا، وهُناكَ، جهتَيْ الشّرقِ

والغَربِ، يجلسُ علماءُ العُلومِ العقليّةِ والطّبيعيّةِ. وإذا كنتَ تريدُ حقًّا أن تكونَ عالمًا، فاختَرْ لنفسِكَ ما تراهُ مِنَ العُلومِ. وأَنتَ وجهدَكَ فِي العِلْمِ.

وراحَ الحسنُ يتأمّلُ الحصرَ الملوّنةَ علَى الجُدرانِ، والمقاعِدَ المُزخرَفةَ بالصَّدفِ.

وقالَ الأبُ لِلحَسَنِ:

– في الصَّيفِ والخَريفِ، ستكونُ دراسَتُكَ عقبَ صَلاةِ العِشاءِ، إلى السّاعةِ الواحدةِ والنّصفِ ليلاً. وفي الشّتاءِ والرّبيعِ، سَتكونُ دراسَتُكَ مِن شُروقِ الشّمسِ إلى الواحدةِ والنّصفِ ظُهرًا.

الرّحلةُ الكُبرى

وكانَ الحسنُ قَد بلَغ مِن العُمرِ سبعةَ عشرَ عامًا، حينَ أتمَّ دِراسَتَهُ للنّحوِ والصّرفِ، وعروضِ الشّعرِ (أوزانه) وقوافيهِ (أواخره)، والأدبِ والتّاريخِ، والفلْسفةِ والمنطقِ وعلومِ الشّريعةِ، دونَ أن يُجازَ في أيِّ علمٍ مِنهَا.

وذَهَبَ الحسنُ لزيارةِ خالِه، فوجَده يستعدُّ لسفرٍ طَويلٍ. وقالَ لهُ خالُه:

– كلّفني سُلطانُ فاسَ، بمهمةٍ سياسيّةٍ في «تومبُوكتُو» (مدينة بجمهوريّة مالي بوسطِ إفريقيا) وهي رحلَةٌ كُبرى، فإذا شئتَ أنْ تَصحبَني في رحلَتي هذه، وتَرى بِلادًا لَم تَرَهَا، وزُنوجَ إفريقيا، فاذهبْ واستأذنْ أبَاكَ، فقدْ نَبت لَكَ شاربٌ، وصارتْ لَكَ لحيةٌ، واستعدَّ بعدَ أُسبوعٍ.

وأذنِ الأبُ للحسنِ بالسَّفرِ معَ خالِه، وقالَ لهُ:

– كبُر خالُكَ في السِّنّ. فسافِر معهُ لِترعَاهُ، وتُحقّقَ أُمنيتَكَ.

معَ أوائلِ الخَريفِ، غادرتِ القافلةُ السُّلطانيّةُ مدينةَ فاسَ. كانتْ قافلةً كَبيرةً، بِهَا حمَّالونَ وأدلاءَ، وفُرسانٌ للحِراسةِ. وكانَ الحَسنُ وخالُه جالِسَيْن فَوْقَ سَنامَيْ جملَيْنِ، يسيرانِ في مُقدّمةِ القافلةِ السُّلطانيّةِ. وقالَ الخالُ للحسنِ:

– افتحْ عينيْكَ جيّدًا. ودوِّن مُلاحظاتكَ حوْلَ كلِّ ما تراهُ، إذا كنتَ تُريدُ حقّا أن تكونَ مثلَ ابنِ بطّوطة.

وعندَ سفحِ جبالِ الأطلسِ، دُهِشَ الحسنُ لرؤيَتِه أهلَ مدينةِ (سفْرُو) في ثِيابٍ مُتّسخةٍ. وقالَ لهُ خالُه:

– أهلُ سفرُو أغنياءَ، لكنّهم لجأوا إلى هذا المظهرِ السّيّءِ، مُنذُ أن أرهقَهُم أميرُ سفرُو بالضّرائبِ، فتظاهرُوا بالفُقرِ وسوءِ الحالِ.

وفي الممَرِّ الجبليّ بجبالِ الأطلسِ، رأى الحسنُ غابةً ممتدّةً، ظلَّ يراها مِن حَوله طَوالَ يومَيْن، إلى أنْ شاهدَ مدينةَ نُميديَة. وكانتِ المدينةُ قَد صارتْ أطلالاً، وكانتْ مِن قبلِ الإسلامِ، مدينةً لعبدةِ الأصنامِ.

وفي اليومِ الخامسِ، رأى الحسنُ قريةَ «الآبارِ المائة». كانتْ قريةً حافلةً بالآثارِ القديمةِ، وبجوارِها كانتْ آبارٌ عميقةٌ، تَبدو بدرَجِها (سلالِمِها) وكأنَّها مَغاراتٌ وكُهوفٌ. وقالَ للحسنِ تاجرٌ جنَويٌّ (من جِنْوة) عجُوزٍ، التحَقَ معَ سِواهُ من التُّجّارِ بالقافلةِ:

– إحدَى هذِهِ الآبارِ مكوَّنٌ من طَبقاتٍ، وبداخلِها حُجُرات مُسوَّرَة مُرتّبة وكان أهلُ فاسَ يدخلُونَها، ويَبحثون فيها عَنِ الكنوزِ والذّهَبِ، كانُوا ينزلُون إليهَا بالحِبالِ والفوانيسَ. وكثيرٌ منهم لم يَعودُوا منهَا قطُّ، فقدْ قَتلتْهُم الحيّاتُ والأفَاعِي، أو اختنقُوا داخلَها بالهواءِ الفاسِدِ.

قريةُ الكتبِ

في اليومِ السّابعِ، رأى الحسنُ مَجْرَى ماءٍ آسنٍ (راكدٍ وفاسدٍ) بموضعِ «أُمّ جُنَيْبَة» يَحُومُ حولَه البعوضُ والحشراتُ. دُهِشَ الحسنُ حينَ رأى كلَّ رجالِ القافلةِ ينزلُون عن دَوَابِّهم، ويَسيرُونَ مُسْرِعينَ، فِي حَركاتِ قَفزٍ ورَقْصٍ يُمنةً ويُسرةً، وقالَ دليلُ بالقافلةِ للحسنِ وخالِه:

- انْزِلا، وافعلاَ مثلَمَا نفعَلُ، وإلاّ أُصِبْتُما بِالحُمّى الرُّباعيّةِ.

ونَزَلَ الحسنُ عَن جمَلِه، وسَارَ مثلَ سَيْرِهِمْ، لكنَّ خالَه رأى هَذا السُّلوكَ صِبْيانيّا، لاَ يَليقُ بمبعوثٍ للسُّلطانِ، وراحَ الحَسَنُ يبذُلُ كُلَّ جُهدِهِ لدفعِ البعُوضِ عَن وَجهِهِ ويديْه، طَوالَ الطّريقِ، حَتّى اجتازَ هذا المكانَ.

وفي أعْلَى جبالِ الأطلسِ، هَبّت ريحٌ خَريفيّةٌ شَماليّةٌ قارِسَةٌ (شَديدةٌ) البَرْدِ. وعِنْدَ قِمّةٍ جبليّةٍ، كانتْ قريةٌ تُقيمُ بها قبيلةٌ مُسْتازَة. وقالَ التّاجرُ للحسنِ:

- هذِهِ القبيلةُ قبيلةٌ قارئةٌ كاتبةٌ، تنسخُ الكُتبَ بأجملِ الخُطوطِ، عَلى أجْوَدِ الوَرَقِ، وتُجَلِّدُهُ بأرْقَى الجُلودِ.

وسارعَ التّاجرُ الجنَوِيّ بِشراءِ مائةِ كتابٍ مِن كُتُبِ «مُستازة» الفاخرةَ الفَخْمَة، قائلاً للحَسن:

- الاتّجارُ بالكتبِ في الشَّرقِ وإفريقيا مُربِحٌ للغايةِ، ولسوفَ أبيعُ ما اشتَرَيتُه إلى عُلماءِ الزّنجِ وأعيانِهِمْ فِي «تُومبُكتُو». ولسوفَ أشتَري مثلَها في العَودةِ لأبيعَها بفاسٍ.

- وذَهبَ الحسنُ مَعَ التّاجرِ إلى وَكيلِه بالقريةِ فرأى مَنزلَه حسنَ البناءِ في القمّةِ الجبليّةِ، وقَدْ فُرِشَتْ أرضُه بالبُسُطِ الصُّوفيّةِ، والسّجاجيدِ الزّاهيةِ الألوانِ، وكُسيَتْ جُدْرانُهُ بالرُّخامِ، والقاشَانيِ الملوّنِ، وقالَ صاحبُ البيتِ للحَسنِ:

- من مِنَنِ (نِعَمِ) اللّه علينا، أنّنا نعيشُ في جبَلٍ، يَمنحُنا الحرّيةَ والحمايةَ، وعلى طَريقٍ يجلبُ لَنا الغنَى والمعرفةَ. ولا أَميرَ علينَا مِن سُلطانٍ، ولا نَخافُ نَهبَ البدْوِ والبربَرِ.

مرض الخال

وعندَ نَهرِ «زيز» عَبَرَ الحسنَ جبالَ الزّيز، في أرضِ قبيلةِ «زَنَاغا البَربَرِيّة» ورأى الأفاعيَ وهي تَزْحَفُ وادعةً أليفةً بينَ البُيوتِ، مع

القِطَط والكِلابِ، وتأكلُ مِن أيدي النّاسِ فُتاتَ الخُبزِ، دُونَ أن تُصيبَهُم بِأذَى.

وانحدرتِ القافلةُ مِن الزِّيزِ، فرأى الحَسنُ عدداً لا يُحصَى مِن النَّخيلِ ظَلَّ مُمتدّاً على الجانبينِ، في الطّريقِ إلى سَهلِ «سجلْماسة» ونزلَتِ القافلةُ فِي هذا السَّهلِ لتستريحَ، وكانَ الحرُّ شَديداً، والعرَقُ يتفصّدُ من جُلودِ النّاسِ والخيلِ والجمالِ.

وقُدِّرَ للقافلةِ أنْ تبقَى في مَكانِها ثلاثةَ أشهُرٍ، بدلاً من ثلاثةِ أيامٍ، فقد مَرِضَ خالُ الحسنِ بالحُمّى الرُّباعيّة، من لَدْغِ البعُوضِ لَه، فِي «أم جُنَيْبَة» وراحَ الحَسَنُ يتجوّلُ خلالَ هذهِ الشُّهورِ في مدينةِ «سجلماسة». كانَ أكثرُ عمرانِها قَدْ صارَ أطلالاً، تَكسُوهَا الطّحالِبُ والأعشابُ، وقَد أصبحَ النّاسُ عَشائِرَ مُتناحرةً، فِي القُرَى المُحيطةِ بالمدينةِ، يُتلِفُ بعضُهمْ أراضِي البعضِ، ويُدمّرُ منازِلَه، ويَطُمّ (يردِم) آبارَه.

وأفاقَ الخالُ ذاتَ صباحٍ، وقدْ توقّفَ أنينُه، وسَلُسَ كلامُه، وتحسّنَتْ حالُه، فأصدَرَ أمرَه بالرّحيلِ، لكنَّ القافلةَ لم تتحرّكْ مِن مَكانِها، فَقَد راحَ الخالُ مرّةً أُخرَى في غَيبُوبةِ الحمّى، ومرّتْ شُهورٌ أُخرَى، والقافلةُ في مَكانِها.

نِصفُ قَدحِ ماءٍ

مَعَ بدايةِ الرّبيعِ، استعادَ خالُ الحَسَنِ صِحّتَه ونَشاطَه، فرحَلتِ القافلةُ، مُجتازةً صحراءَ «نُميدية» طَوالَ مائَتَيْ ميلٍ، في رمالٍ طاغيةِ الشّمسِ، قليلةِ الماءِ، فقيرةِ المواردِ، والحُرّاسُ يصطادُونَ ما يصادفُونَه مِن النّعامِ والغزْلانِ، لإطعامِ المُسافرِينَ.

واجتازتِ القافلةُ مدينةَ «طَبلَبَالة»، حتّى وَصلَت إلى مدينةِ «أُورْزَازَات» وبعثَ أميرُها يدعُو الخالَ لزيارتِه، فاعتذَر عنِ الذّهابِ، وأرسلَ إليهِ بالحَسنِ بدلاً مِنهُ، ومعهُ هَدَايَا للأميرِ: كتابٍ عَن أولياءِ أفارقةٍ، وحَبلانِ مِن حريرٍ، أحَدُهُما بَنَفسجِي، والآخرُ أزْرَقُ، ومَضفُوران بخُيوطِ الذّهبِ، ومِهمَازانِ رائِعان، ورِكابَانِ (سِرْجانِ) مُزَيّنَانِ عَلى الطّريقةِ المغربيّةِ. وعادَ الحسنُ إلى خالِه بعدَ أربعةِ أيّامٍ، وقَد أهداهُ الأميرُ حِصانًا جَميلاً، وأعطاهُ خَمسينَ دينارًا ذهبيًا لهُ، ومائةَ دينارٍ ذهبيّ لخالِه.

وواصلتِ القافلةُ سَيْرَها عَلى خَطّ القوافلِ وتَزوّدتْ مِن وَاحتَيْ: «تُوَات» و«غرارَة» بالطّعامِ والماءِ، فِي طَريقِها إلى مدينةِ «تَفازَة».

وكانَتْ «تَفازةُ» مُحاطةً بمناجِمِ الملحِ، وسَرعَانَ ما انْضَمَّ إلى القافلةِ

تُجّارُ الملحِ بجِمالِهِمْ، وكانَ كلُّ جملٍ يحملُ أربعَ زكائبَ مِن الملحِ، لبيعِهَا فِي مدينةِ «تومبُوكتُو».

واستأنفَتِ القافلةُ سَيْرَها فِي جَحيمِ الصّحراءِ المغربيّةِ، فَلا شَيءَ بِها سِوَى الحرِّ، ووهَجِ الشّمسِ والأفاعِي، وعِظامِ مَن هلكَ مِن الجِمالِ والمُسافرينَ. وفَوقَ شاهدِ قَبْرَيْنِ قرأَ الحسنُ قصّةً عَجيبةً:

«هُنَا يَرقُدُ رَجُلانِ: إحدُهمَا غَنِيّ والآخَرُ فَقيرُ لاَ يَملِكُ سوَى نِصْفِ قدحٍ مِن الماءِ. وكانَ كِلاهُما ظامئًا. فاشتَرَى الغنيُّ مِنَ الفَقيرِ مَا مَعَهُ مِن ماءٍ، بعشرةِ آلافِ دينارٍ ذهبيّ. وعِندَما خَطا كلُّ مِنَ البائِعِ والمُشْتَري نحوَ صاحبِه، سَقَطا مَعًا مَيتَيْنِ منَ العَطَشِ».

عِندَئذٍ صَاحَ الحسنُ بمنْ فِي القافلةِ:

– حافِظوا على الماءِ. قلّلُوا الشُّربَ مِنهُ. إلى أنْ نَجتازَ هَذِهِ الصّحراءَ، ونَصِلَ إلى «تومبُوكتُو».

مَوكبُ الأمير

قُربُ المربِ، عبرتِ القافلةُ أسوارَ «تومبوكتو»، وقدْ تقرَّحتْ (التهبَتْ) عيْنَا الحسنِ من الرّياحِ والأتربةِ والحرِّ، وتورّمَ فمُه من شُربِ مياهِ الآبارِ المالحةِ الطّعمِ، واتّسخَ جسَدُه، وبدَتْ «تومبوكتو» لعينَي الحسنِ وكأنّها جنّةُ عدنٍ، بعدَ رحلةٍ دامتْ نحوًا من عامٍ، في الجبالِ والغاباتِ والصّحارَى والواحاتِ.

وأنزلَ فُرسَانُ تُومبُكتو الحسنَ وخالَه في قَصرِ الضّيافةِ، بالقُربِ مِن جامعِ تومبوكتو. وسارَعَ الحسنُ إلى الاغتِسالِ والعَشاءِ، وراحَ يُغالبُ النّومَ وهو ينظرُ مِن نافذةِ غُرفتِه، إلى مَيدانِ المسجدِ الجامعِ.
وطَارَ النّومُ مِن عيني الحَسَنِ، حين رَأى الميدانَ يمتلئُ بالفتيانِ والفَتياتِ مِن الزُّنوجِ وهُمْ يرقُصونَ ويُغنّونَ على دقّاتِ الطُّبولِ، تحيّةً للوافِدِينَ مِن المغربِ.

وفي الصّباحِ قابَلَ الحسنُ مَع خالِه أميرَ تُومبوكتُو «الأسْكا محمد تُوري»، في قَصرٍ فَخمٍ. وكانَ حفلُ الاستقبالِ منظّمًا بدقّةٍ. وانفردَ الخالُ والأميرُ في حديثٍ طَويلٍ.

وطَوالَ ثلاثةِ أسابيعَ، راحَ الحسنُ يتجوّلُ في شوارعِ تومبكتُو، وأسواقِهَا، ويعودُ إلى غرفتِه معَ اللّيلِ، ويُحدّثُ خالَهُ عمّا رآه، ثمّ يجلِسُ ليُسجّلَ مُلاحظاتِه عَن المَدينةِ وأهلِها، في ضَوءِ مِصباحٍ. وخاصّةً عَنْ مشهدِ موكبِ أميرِ تومبُكتُو، وهوَ ذاهبٌ إلى الصّلاةِ راكبًا جَملاً، وحَولَه خيولُ حاشيَتِه ذاتِ السّرُوجِ المُطعَّمةِ بالذّهبِ، يقودُها خَدمٌ مُسلّحونَ بالسُّيوفِ.

ورأى الحسنُ في مدينةِ «تُومبكتُو» كُلَّ أنواعِ السِّلَعِ متوفّرةً، حتّى الأقمشةَ الأوروبيّةَ المستوردَةَ الغاليةَ الثّمنِ. وكانَ أكثرَ أهلِها أغنياءَ،

خاصّةً التّجارِ، وكانَ أميرُها يُحيطُ الجَميعَ بالرّعايةِ. وكانَ النّاسُ يَتَعاملُون بقطعِ الذّهبِ الصّافي، وليسَ بالنُّقودِ المسكوكَةِ. ومبالغُ العملةِ الصَّغيرةِ كانتْ أصدافًا بحريةً مجلوبةً من الهندِ وفارس. وكانَتْ نساءُ المدينةِ سافراتِ الوُجوهِ والأيدي والأرجُلِ، ويشتَغلنَ بالتِّجارةِ في الأغذيةِ مِن الحُبوبِ والمواشي، واللّبنِ والزُّبدِ والملحِ، وكانَ الملحُ سِلْعَةً نادرةً، ولنُدرَتِه لا ينثرُه النّاسُ على الطّعامِ، وإنّما يحتفظُونَ بِه في أيديهِمْ، ويَلحَسُونه بألسِنَتِهم، وهمْ يأكلونَ.

لا بدَّ مِن العودةِ.

وعاودَ المرضُ خَالَ الحسنِ، فبعثَ الأميرُ بطبيبِه الخاصِّ لعلاجِه. وكانَ الطّبيبُ هَرِمًا (عَجوزًا)، ذَا لحيةٍ بيضاءَ، تلْتَفُّ مثلَ الطَّوقِ حولَ وجهِه وعُنقِه، وكانَ قدْ قَرأ كُتُبَ الطّبِّ الشّرقيّةِ والأندَلُسيّةِ، ويَعرِف العربيّةَ، وأعدَّ الطّبيبُ لخالِ الحَسَنِ علاجاتٍ مِن العَقاقيرِ النّباتيّةِ والحَيَوانيّةِ والمعدنيّةِ.

ولَم تتحسّنْ صِحّةُ الخالِ، فَقدْ رَاحتْ تتدهورُ تدهُورًا شَديدًا، حتّى يئِسَ الحسنُ مِن شِفَائه. ودَعَا الحسنَ خالهُ ذاتَ صَباحٍ، وقالَ لَهُ.

- اذْهب برسالةِ سلطانِ المغربِ، إلى أميرِ تومبكتُو، وأعطِها إليه، ليرسلَها إلى مَلِكِ مُلُوكِ الزّنُوجِ في مدينةِ «غَاو» فَلاَ أظُنُّ أنّني سأستطيعُ السّفرَ إليه، في مقرّ مُلكِهِ.

فنفّذَ الحسنُ مُسرِعًا مَا طلبَه مِنْهُ، وحينَ عادَ إليه، قالَ لهُ خالُه:

- بدأتْ بشائرُ الحَرِّ مَعَ الرَّبيعِ، ولَسوفَ يَستَحيلُ علينا السّفرُ قَبلَ الخَريفِ، إذا أجَّلْنا عودَتَنا. لا بُدّ مِن سَفَرِنَا غدًا، برغمِ مَرضِي، فَلا أستطيعُ أن أتغيَّبَ سنتَينِ عَن السُّلطانِ، في مهمّةٍ كَانَ ينبغي ألاّ تَزيدَ عَن ستّةِ أشهرٍ. وقدْ نَفَذَ كلُّ مَا مَعِي مِن مالٍ، وأُفضّلُ أنْ أموتَ بينَ أهلِي، وفي وَطَنِي، وليسَ في أرضٍ غَريبةٍ.

وفي الغَدِ، بدأتْ رحلةُ العَودةِ إلى فاسٍ، عبرَ الطّريقِ نَفسِه، وكانَ الحَسَنُ، والتّاجرُ الجنوي العَجُوز «توماسُّو مارِينُو» قَد أَصبَحا صَديقَيْنِ حَميمَيْنِ.

وفي اليومِ السّابعِ، عَجزَ خالُ الحسنِ عَن التّماسُكِ (الثّبات) فَوقَ ظَهرِ جمَلِه، حمَلَهُ رجالُ القافلةِ عَلى مَحَفّةٍ مُريحةٍ. وفي اللّيْلِ، قالَ خالُ الحسنِ للحسنِ:

- خذْ هذهِ الوصيّةَ، واحتفظْ بِهَا لتقرأَها بعدَ مَوتي، ونفِّذْ مَا بِها حَرفًا حَرفًا. وخُذْ هَذا التّقريرَ للسُّلطانِ، وسلِّمهُ لهُ بيدِك، عندَ وصولِك إلى فاسٍ.

وفي تلكَ اللّيلةِ، أسلَمَ خالُ الحسنِ روحَهُ إلى بارئِهَا، فدُفِنَ في الرّمالِ علَى جانبِ الطّريقِ، عندَ «تَفَازَة».

وفي الصّباحِ، فَتَحَ الحسنُ وصيةَ خالهِ، فوجَدهُ يكلّفُهُ بقيادةِ القافلةِ مِن بَعدِهِ، التَّضحيةِ بكلِّ غالٍ ورَخيصٍ، لِكَيْ تَصلَ القافلةُ بسلامٍ إلى فاسٍ. ولَم يَجدِ الحسنُ مَعَ خالِه سِوَى ثمانيةَ عَشَرَ ديناراً، هي كلُّ ما بَقِيَ منهُ لرحلةِ العودةِ، ومَعهَا كانتْ هَدايا أميرُ تومبكتُو إلى سلطانِ المغربِ.

زواجُ الصّديقَينِ

فِي رحلةِ العودةِ، اضطُرَّ الحسنُ إلى بيعِ ثلاثةِ جِمالٍ، والجَوادِ الذي أُهدِيَ إليهِ، والتّخفُّفِ مِن المؤَنِ، والاستِغناءِ عَن خدماتِ أدلاَّءٍ وحمّالِين، ومَنَحَ بعضَ هَدايا السُّلطانِ إلى الأعيانِ، الذينَ كانُوا يستضيفُونَ القافلةَ علَى الطّريقِ.

ونجحَ الحسنُ فِي الوُصولِ بالقافلةِ سَالمةً إلى فاسٍ، وزارَ بيتَ خالِه، فاتّشَح نساءُ البيتِ السّوادِ حُزنًا علَى وَفاتِه، حينَ علمنَ بالخَبَرِ.

وفِي اليومِ التّالي، سَلَّمَ الحسنُ تَقريرَ خَالِه عَن الرِّحلةِ إلى السُّلطانِ، وتلقَّى عزاءَه هُوَ وحاشيَته. وأثنَى (مدح) السُّلطانُ على الحسنِ لنجاحِه في رحلةِ العودَة، ولبلاغَته وفَصاحَته في مُخاطَبَته. وأسْرعَ الحسنُ ليلتَقيَ بصديقِه هارُونَ المنقّبَ، وجَلسَا معًا في بُستانٍ مِن بَساتينِ فاسٍ. وقالَ الحسَنُ لهارُونَ:

- سأتزوّجُ مِن فاطمةَ ابنةِ خالي، فَهذَا هو واجِبِي لرعايةِ أُسرَتِه.

وانتهزَ هارُونُ هذهِ الفرصَةَ، وحدّثَ الحسنَ عَن رَغبَتِه في الزَّواجِ مِن أختِهِ مريمُ. وقَبْلَ أن ينقَضي شَهرانِ، تزوّجَ الصّديقانِ، فِي حفْلٍ واحِدٍ.

ووَجَدَ الحسنُ نفسَه مُضطَرًّا للعملِ، فعملَ كَاتبًا ومشرفًا بمارَسْتَانِ (مستشفى) للمجَانينَ. ومَكَثَ في عَملِه شُهورًا قَليلةً، عانَى فيهَا مِنَ الإرهاقِ، في تعامُلِه مَعَ المَجانينِ. وعندئذ، فكَّرَ وقدَّرَ، وقَرَّرَ الاشتِغالَ بالتِّجارةِ، مثلَ ذَلكَ التّاجِرُ الجنويُّ «تُوماسّو» فأسرعَ بالذّهابِ إلى بيتِه.

عاشقُ الأسفـار

كانَ «تومَاسّو» عَلى فِراشِ المرضِ، فقالَ لهُ الحسنُ بعدَ حديثٍ طَويلٍ معهُ:

- إنّني أعشَقُ السّفرَ، وأحبُّ التّجارةَ. وجئتُ إليكَ لأستعينَ بخبرتِكَ، وأنا لا أعرفُ في التّجارةِ شَيئًا، ولا أملكُ لَها مالاً، ولَيسَ مَعِي سِوَى عَزمي وعَقلِي.

فابتَسمَ التّاجرُ الجنويُّ العجوزُ «توماسّو» وقالَ للحسنِ:

- جئتَ في وَقتِكَ يا بنيّ، وأنتَ فَتًى أمينٌ. لقدْ وصلَتْ إليَّ مِن إيطاليا وإسبانيا طلبيّتانِ مهمّتانِ لعَبَاءاتٍ مغربيةٍ سَوداءَ، مِنْ مدينةِ «تَفْزَة». ويتحتَّمُ عَليَّ أنْ أرسِلَ بألفٍ وثمانمائة عَباءَة إلى البلدَيْنِ. وحالتِي الصّحيّةِ لا تَسمَحُ لِي كما تَرَى، بالسّفرِ. وقَد بعثَ اللّهُ بكَ إليَّ لتقومَ عَنّي بهذهِ المهمّةِ.

وقدَّمَ «توماسُّو» للحسنِ ألفًا وثمانمائةَ دينارٍ، ثمنًا للعباءاتِ، ومائتينِ أجرًا لَهُ، وقَالَ:

- لَوْنجحْتَ يا بُنَيَّ في شِراءِ العباءاتِ بثمنٍ أقَلّ فالفرَقُ كلّه من حقّكَ، ولَوْ اشتَريتَها بِثَمنٍ أغْلَى، فالفرقُ كلُّهُ ستدفَعُهُ أنْتَ.

وقبلَ الحسنُ القيامَ بهذِهِ الصّفقةِ لتُوماسُّو، وأعارَه «توماسُّو» جَوادًا ليركَبَه في رِحلَتِه، وخادمينِ لخدمتِه، وتسعَ بغلاتٍ لحملِ زادِهِ وثيابِه. وأوصاهُ بالإسراعِ والحَذَرِ.

وعَلِمَ الحسنُ أنَّ أهلَ «تَفزة» بحَاجةٍ للسُّيوفِ، للدّفاعِ عَن أنفُسِهم ضدَّ البرتغاليِّينَ، الذينَ كَانُوا يعتَدُونَ آنئذٍ عَلى المغربِ، ولأنّهمْ قَد تَمرَّدُوا عَلى أميرِ السُّلطانِ لظلمِه لهم، وصارُوا يريدُونَ أميرًا عليهم مِن بينهم، وجَمَعَ الحسنُ كلَّ ما ادخرتْه أمُّه وزوجَتُه مِن مالٍ، واشترى بأربعمائةِ دينارٍ أربعمائةَ سَيفٍ، ليبيعَهَا لأهلِ «تفزة».

كنْ مُتواضِعًا

معَ شرُوقِ الشّمسِ دخلَ الحسنُ مدينةَ «تفْزة»، ونَزلَ بخانٍ (فندق) متواضعٍ، وسَارَعَ بعقدِ مَزادٍ باعَ فيهِ سيوفَهُ الأربعمائةِ بألفٍ وثمانمائة عباءةٍ سَوداء جيّدةً، فكسبَ مِن صَفقتِهِ ألْفَيْ دينارٍ، عليهِ أن يرُدَّ مِنهَا أربعُمائةِ لأمّه وأختِهِ.

وفِي اللَّيلِ، جاءَ إلى الحسنِ رَئيسُ أعيانِ «تفزة»، وطَلبَ منهُ التّوسُّطَ لدَى قائدِ جيشِ السُّلطانِ، الذي وَصلَ بجُندِه وحاصَرَ «تفزةَ». وقالَ رئيسُ المدينةِ للحسنِ:

- إذا نجحْتَ في منعِ الصِّدامِ بيننَا، وبينَ جيشِ السُّلطانِ، وفي إنقاذِ «تفْزة» مِنَ الدَّمارِ، وأهلِها مِنَ القتالِ، وفي عَزْلِ أميرهَا الحالي الظَّالِمِ، وفي توليةِ أميرٍ عادلٍ علينَا، منْ بينِنَا، فسوْفَ يدفعُ أهلُ «تفزة» للسُّلطانِ خراجًا (ضَريبةً) مقدارُه عشرونَ ألفَ دينارٍ ذهبِيّ، في كلِّ عامٍ.

ونجحَ الحسَنُ في تَفاوُضِه معَ قائدِ الجَيشِ السُّلطانيّ، فنَجَتْ «تفْزَة» مِن الحَربِ، وغُرِّمَ أهلُها أربعةً وثمانينَ ألفَ دينارٍ ذهبِيّ، دَفَعوها لقائدِ الجَيشِ، عِقابًا لهمْ علَى تمرُّدِهم ضدَّ السُّلطانِ.

وكَسِبَ الحسنُ من هذهِ المهمّةِ مالاً آخرَ، منحهُ لهُ قائدُ السُّلطانِ، وهدَايا نفيسةً، قُدِّمَت إليه مِن أعيانِ المدينةِ. وعادَ سالمًا رابحًا إلى «فاس»، يشعرُ بأنَّ الدُّنيا كُلَّها ملْكَهُ، فقدْ أصبحَ غنيًّا مِن التّجارةِ، والمُفاوضةِ. وكانَ يحرسُ قافلتَه الصّغيرةَ، في العودةِ، اثنَا عشرَ جنديًا مِن جنودِ السُّلطانِ.

وأثْنَى «توماسُّو» على الحَسنِ لمهارته التّجاريّةِ والسّياسيّةِ، وقالَ لهُ:

- ابتسمَ الحظُّ لكَ يا صَديقي. ولَكنْ، احْتَرِسْ. فالثّروةُ والسُّلطةُ عدُوَّتانِ لسلامةِ الرَّأيِ. وتذكَّرْ أنَّ سَنابلَ القَمحِ المُنتَصبَةَ، هي فارغةٌ

مِنَ الحُبوبِ، وأنَّ السّنابِلَ المحنيَّةَ هي وحدَهَا الملْأَى بالحُبوبِ، فكُنْ مُتواضِعًا دائِمًا.

بِسبب هارونَ

ومرّتْ شُهورٌ عَلى أهلِ فاسٍ، استولَى فيهَا الغُزاةُ البرتغاليُّونَ علَى مدينتَيْ: «وَهْرانَ» و«بُوجِي» السّاحِليّتينِ، وكانَتْ ثروةُ الحسنِ تتضاعفُ، فعملاؤُه يجوبُونَ مَدائنَ إفريقية للبيعِ والشّراءِ، محمّلينَ بالتُّمورِ، النِّيلةِ (مادة زرقاء للصّباغةِ)، والحنّاءِ، والزُّيوتِ، والأقْمِشَةِ، ولمْ يكنِ الحسنُ يغادِرُ فاسَ إلاّ في تجارةٍ كَبيرةٍ، لبيعِ سلعٍ مجلوبةٍ من أوربا، أو لشراءِ سلعٍ مجموعةٍ مِن مدائنِ المغربِ، لإرسالِها إلى متاجِرِ المدنِ الأورُبيّةِ. وكانَ الحسنُ يقومُ أحيانًا بمهامّ سياسيّةٍ للسُّلطانِ في أنحاءِ المغربِ، لتجميعِ القُوى المجاهدةِ ضِدّ البرتغاليّينَ.

وكانَ الحسنُ قَد بَلَغَ مِن العمرِ أربعًا وعشرينَ سنةً، حينَ تُوفيتْ زوجتُه فاطمةُ، وهي تضعُ ابنَتَهُما «ثرْوة»، فَحَزِنَ عليهَا الحسنُ ثلاثةَ أيّامٍ. ثُمّ فوجِئَ بدعوةِ السُّلطانِ لهُ، فذهبَ إليهِ، ووجدَه غاضِبًا عليهِ، لأنّ «هارونَ المنقّب» زوْجَ أختِه، قَد انضمَّ إلى «عروجٍ» زعيمِ الثّائرينَ

عليه في مدينة «تلمسان»، متّهمين إيّاه بالتّهاون في الجهاد ضدّ البرتغاليّين، وبالعجز عن تحرير المدن السّاحليّة بالمغرب من الغزاة، ومع أنّ الحسن لم يكن مسئولاً عمّا فعله «هارون»، فقد أمر السُّلطان بنفيه عن المغرب، لمدّة عامين.

وغادر الحسن المغرب، يتبعه رجاله وحرّاسه، وإبل تحمل سلعه التّجاريّة الأوربيّة، متّجهًا إلى الجنوب، صوب تومبكتو.

الطّريقُ إلى المنفى

كانت القافلة تجتاز ممرَّ «الغربان» في جبال الأطلس، متّجهةً إلى مدينة «أورزازات» وجاء اللّيل، فتوقّف الحسن مع قافلته للرّاحة. وآثر أن يقضي ليلته في مغارة، في ضوء فانوس، بعد أن سدَّ مدخلها بالأحجار. وكانت معه أغطية صوفيّة، وقربة لبن، وقربة ماء، وقربة تمر، وترك قافلته في الخيام، كي ينفرد مع نفسه، وأوراقه، وقلمه.

وفي اللّيل، هبّت ريح باردة، تحوّلت عاصفة ثلجيّة، وظلّت الرّيح تهبُّ طوال نهارين وليلتين، حتّى تراكم الثّلج، وسدَّ باب المغارة، ونفد وقود الفانوس، ودبَّ الخوف في قلب الحسن خوفًا على قافلته، ورجاله، وماله الذي يحرسه حرّاس القافلة في صناديق مغلقة.

وصباحَ اليومِ الثّالثِ، سمعَ الحسنُ رُعاةً يُزيلونَ الثُّلوجَ عَنْ مدخَلِ المغارةِ، ليحتَمُوا بهَا منَ البردِ والثّلجِ. فَسارَعَ الحسنُ، فورَ دخولِهِمْ، يطلبُ ضِيافتِهم لهُ، وحِمايَتَهمْ إيّاهُ، إلى أنْ يتمكّنَ منَ العودةِ إلى قافلَتِه، ومُواصلةِ رحلَتِه.

ضياعُ الثّروَةِ

وحينَ هدأتِ العاصفةُ، غادرَ الحسنُ المغارَةَ معَ الرُّعاةِ، وجدَ خيامَ معسكرِه، على بعدِ نصفِ ميلٍ، وقدْ تناثَرَتْ، ودُفِنَتْ هيَ ومَنْ كانَ تَحتَها من رِفاقِ القافلةِ تحتَ الثُّلوجِ، ومَعَهَا أموالُه وزادُهُ وبضائعُهُ. عِندَئذٍ صاحَ الحسنُ قائلاً للرُّعاةِ، وهوَ يريهُم كلَّ ما كانَ في جَيبِه مِن مالٍ:

- هَذا هُوَ كلُّ ما بَقِيَ مَعِي منْ مالٍ للرَّحيلِ إلى بلادِ النّيلِ: دينَاران، وخمسةُ دَراهِمَ. وتَحتَ هذهِ الثُّلوجِ ترقُدُ صناديقُ لِي، بِهَا مائة وعشرُونَ ألفَ دينارٍ ذهبيّ.

وصَحَبَ الرُّعاةُ الحسنَ معهمْ إلى قريَتِهم، قريةِ «دارًا» وكانتْ قريةً تُحيطُ بهَا أشجارُ النّيلةِ.

وكانَ زعيمُ القبيلةِ الرّعويّةِ بقريةِ «دارًا» رَجُلاً أسودَ البشْرَةِ، وَسيمَ الملامحِ، ذَا لحيةٍ تشبهُ العقدَ. وقالَ زعيمُ القبيلةِ للحسنِ:

- سنجمَعُ لَكَ عشرينَ ألفَ دينارٍ ذهبيّ، تُعينُكَ في رِحلتِك، عَلى أنْ تَترُكَ لَنا صَناديقَ أموالِك التي تحتَ الثُّلوجِ، فتصبحَ مِلْكًا للقبيلةِ حينَ يأتِي الرَّبيعُ، وتَذوبُ الثُّلوجُ.

وقَبِلَ الحسَنُ عرضَ زعيمِ القبيلةِ مضطرًّا وَشاكرًا. ونَعِمَ بكرمِ الضّيافةِ أيّامًا. وفي اليومِ الرّابعِ، زوّدَه الزّعيمُ بحِصانٍ وإبلٍ تحملُ لَه زادَه وشَرابَه، وأعطاهُ مَا وعَدَهُ به من مالٍ. وصَحِبَهُ فُرسانٌ من القَبيلةِ، وسارُوا مَعَهُ مسافةً طَويلةً. وواصلَ الحسنُ رِحلَتَهُ إلى «تومبكتو»، في قافلةٍ صَغيرةٍ، لا تَحملُ أيَّ سلعةٍ للتّجارةِ.

في مَمالِكِ الزّنُوجِ

ولمْ يَكَدِ الحسنُ يستقرُّ بمدينةِ «تومبكتُو» سوَى ساعاتٍ، حتّى شَبَّ حَريقٌ هائلٌ، امتدَّ من الغاباتِ إلى المَدينةِ، فأسرَعَ الحسنُ بمغادرةِ تومبكتو، معَ قافلةٍ هَاربَةٍ منَ الحَريقِ متّجهَةً شَرقًا، بمحاذاةِ نهرِ «النيجَر»، في وسطِ إفريقيا. وكانَ بالقافلةِ أربعُونَ تاجرًا منْ جَميعِ الأجناسِ، في طَريقِهِمْ إلى مملكةِ «غاوْ».

ودَخَلَ الحسنُ معَ القافلةِ مدينةَ «غاوْ»، وأدهشَهُ ما رآه بها منْ ثَراءٍ، ووفرةٍ في الحُبوبِ والفواكهِ والخُضرواتِ، ورأى لأوّلِ مرّةٍ، ملكَ ملوكِ الزُّنوجِ، في موكبٍ مَهيبٍ، وسُيُوفُ فُرسانه مرصّعةٌ بالجَواهرِ، وسُروجُ خَيلِه، وألجمتُها، مثلُ أوانِي قصرِه، وسلاسلِ كلابه، منَ الذَّهَبِ الخالِص.

وسعَى الحسنُ لمقابلةِ ملكِ الملوكِ، وذكَّرَهُ بالرِّسالةِ التي كانَ سُلطانُ المغربِ قَدْ بعَثَ إليهِ بهَا معَ خالِه، وأخبَرَهُ بوفاتِهِ في طَريقِ العودَةِ، فأظهَرَ ملكُ المُلوكِ حُزنَه عليهِ، وأكرَمَهُ إكرامًا بالغًا، وزوَّدَهُ بمالٍ وخيلٍ وإبلٍ، ليواصلَ رِحلَتَهُ شَرقًا في ممالِكِ الزُّنوجِ، إلى أنْ يبلُغَ وادِي النّيلِ.

واجتازَ الحسنُ فِي رِحلَتِه خَمسَ عشرةَ مملكةً زنجيَّةً، هيَ ممالكُ: وَلاّتَه، وغِنيا، ومالي، وتومبكتُو، وجُوجو، وجُوبَر، وأجادز، وكانُو، وزِجيزج، وكافَسينا، وزَمْفَرا، ووُتجرا، وبُورنُو، وجاوْجُو، ونُوبي.

وسَجَّلَ الحسنُ فِي أوراقِه، فيمَا سَجَّلَه عنها: «إنَّ حُكّامَ هَذهِ الممالكِ وسُكّانَهَا، علَى قدرٍ كَبيرٍ مِنَ النّشاطِ والثّراءِ. وهُمْ شغوفُونَ (محبّون) بإقامةِ العَدالَةِ، غيرَ أنَّ طَوائفَ منهُم تَحيا نَوعًا مِن الحياةِ الهمجيّةِ».

وطِوَالَ رحلةِ الحسنِ، عبرَ هذهِ الممالكِ، ظلَّ يُمارسُ الاشتغالَ بالتّجارةِ، إلى أنْ بلغَ وادِي النّيلِ، بالسّودانِ، وصارَ وافِرَ الثّراءِ، مِثلَما كانَ.

أُمُّ الدُّنيا

بلغَ الحسنُ مدينةَ «دنقلةَ» بمملكة النّوبة، عَلى ضِفّةِ نَهرِ النّيلِ. وحينَ رأى مياهَ النّيلِ، انبطَحَ عَلى وَجهِه، يشربُ مِن مائِه العذبِ، حالمًا بالرَّحيلِ مَعَ تيارِه إلى القاهرة، أمِّ الدُّنيا في زَمانِها، وواصَلَ الحسنُ سَيرَه بقافلَته برًّا، مُحاذيًا النّهرَ، إلى أسوانَ. ففارقهُ أكثَرُ رجالِه، وركِبَ مَرْكبًا مُسطّحًا، مُحمّلاً بالحُبوبِ والماشيةِ، أبحرَ به شَمالاً في نهرِ النّيلِ، حتّى وصلَ إلى ميناءِ حي مصرَ القديمة الصّغيرِ. وكانَ الحسنُ قَدْ بلغَ مِن العمرِ ستًّا وعشرينَ سنةً.

وكانَ وباءُ الطّاعونِ يجتاحُ القاهرةَ، وسُكّانُها يفرّونَ منْها ومِنَ الوباءِ فِرارًا، في البرِّ إلى جنوبيِّ سيناءَ، وفي النّيلِ إلى صَعيدِ مصرَ، لكنَّ الحسنَ كانَ قَدْ قَرَّرَ البقاءَ، برغمِ الوباءِ، في القاهِرَةِ، بخيرِها وشرِّها، مُواجهًا قدرَهُ ومَصيرَهُ.

وتعرّفَ الحسنُ في الميناءِ الصّغيرِ، إلى رَجُلٍ قاهريٍّ غَنيٍّ يعتزمُ الهَرَبَ معَ أهلِ بيتِه إلى صَعيدِ مِصرَ. وأحبَّ هَذا الرَّجُلُ الحسنَ، فأعطاهُ عنوانَ بيتِه بالقاهرةِ، ومفتاحَهُ، ليَسكُنَ فيه إلى حينِ عودَتِه، وكَتَبَ لَهُ سُطوراً إلى بَوّابِ هَذا البيتِ، ليسمَحَ لهُ بالسَّكَنِ في بَيتِه. وكانَ سُلطانُ مصرَ آنذاكَ، هوَ «قانْصُوه الغوري» وكانَ منْعُ التّجوُّلِ مَفروضًا على أهلِ القاهرةِ، مِنَ الغُروبِ إلى شُروقِ الشَّمسِ.

واعتادَ الحسنُ أن يتجوَّلَ بالمدينةِ المَوبوءَةِ على ظَهرِ حمارٍ، جالسًا في ثيابِه المغربيّةِ، فوقَ سرْجٍ مُطرّزٍ، وصبي يقودُ لهُ حمارَهُ، في طرقاتِ القاهرَةِ، وأحيائِها.

ومِن جَديدٍ، واصلَ الحسنُ في القاهرةِ تِجارَتَهُ. وبَدأَ بإرسالِ قافلةٍ مِن الحَريرِ الهنديّ، والتّوابلِ، إلى مَدينةِ «تِلِمْسان» (بالجزائرِ الآن) فوقَ الجِمالِ، وتلقّى منهَا صندوقًا من العنبرِ باعَه بحيِّ الأزْهرِ، وكسِبَ فيه مالاً وَفيرًا . ولَم تمُرْ بِضعةُ أشهُرٍ، حتّى كانَ الحسنُ قَدْ صارَ مِن أعيانِ القاهِرَةِ، فأقامَ بمنزلٍ يطلُّ على النّيلِ، بحيِّ الرّوضةِ، وخلَعَ زيَّهُ المغربيَّ، وارتَدى الزِّيَّ المصريَّ، ثَوبًا مُقلّمًا بالأخضَرِ، ضَيقًا عِندَ الصّدرِ، مُنسدِلاً باتّساعٍ نَحوَ القدمَينِ،

وعلى رَأسِه عَمَامةً عَريضةً، مِن الحَريرِ الهِنديّ. ووثّقَ الحسَنُ عَلاقَتَه بقصرِ سُلطانِ مِصْرَ.

زَوجَةٌ جَرْكَسِيَّةٌ

احتلَّ البُرتُغاليُّونَ جزيرةَ «قُمْرانَ» عندَ المدخَلِ الجَنوبيِّ للبحرِ الأحمَرِ، وأنزَلُوا جيوشًا بسواحِلِ اليمَنِ الجنوبيّةِ والغَربيّةِ، وباتَ ميناءُ يَنبُعُ، وجُدَّةَ، مُهَدَّدَينَ بالاحتلالِ. وكانَ الحجازُ تابعًا لمصرَ، وصارَ طَريقُ التّجارةِ البَحريِّ بينَ مصرَ والهندَ، عَبْرَ البحرِ الأحمرِ والمحيطِ الهِنديّ، مُهدّدًا بالتّوقُّفِ. حَدَثَ ذَلكَ في عامِ ألفٍ وخمسمائةٍ وأربعةَ عشرَ ملاديّةَ.

وحضَرَ الحَسَنُ استقبالَ قصرِ السُّلطانِ لمبعوثٍ (سَفيرٍ) هنديٍّ، دَخَلَ القاهِرَةَ ومَعَهُ فيلانِ ضَخْمانِ، مكسُوّانِ بالمَخْمَلِ (الحَرير الأحمَرِ)، هديّةً للسُّلطانِ، وأسفرتْ المُفاوضاتُ بينَ السُّلطانِ والسَّفيرِ الهِنديِّ، عَن إقامةِ مركزِ استخباراتٍ مصريٍّ، بمدينة جُدَّة، لمعرفةِ نوايا البُرتُغاليّينَ، وتحرُّكا تِهمْ البَحريّةَ في البحرِ الأحْمَرِ، والمحيطِ الهنديِ. وكانَ السُّلطانُ مَريضًا .

وحينَ شُفِيَ السُّلطانُ، كَانَ الوَباءُ قَد زالَ، فأُقِمَت الأفراحُ بأرجاءِ القاهرةِ، واكتَسَى كِبارُ المُوظّفينَ بأوشحَةٍ حريرةٍ صَفراءَ، ووضعَ أطباءُ السُّلطانِ عَلى رءُوسِهم طَيالِس (جمع: طَيلَسْ وهو غطاءُ الرَّأسِ) مِن المخمَلِ (الحَرير) الأحمَرِ، مزيّنةً بفِراءِ السمُّورِ، وصَدَحَتْ الموسيقَى والأناشيدَ عندَ غُرُوبِ الشَّمسِ، في ميادينِ القاهرَةِ، ورَقَصَ شَعبُها ابتهاجًا بزوالِ الوباءِ، وشفاءِ السُّلطانِ.

وفي القاهرَةِ، تزوَّجَ الحسنُ، وعمرُه سبعٌ وعشرُونَ سنةً من مصريّةٍ جركسيّةٍ، اسمُها: «نورُ»، وكانَتْ أميرةً أرمَلَ (توفّي عنهَا زَوجُها الأوّلُ) بالغةَ الثّراءِ. وشرَعَ الحسنُ في تَصديرِ السُّكّرِ مِن ميناءِ الاسكندريّة إلى المغربِ. واعتادَ أنْ يجلسَ معَ زوجَتِه «نور» في شُرْفَةِ بيتٍ أنيقٍ، يُطِلُّ عَلى ميناءِ الاسكندريّة القديمِ، يَرقُبانِ معًا أطلالَ منَارةٍ، شيَّدَها يومًا العالمُ «بطليموسُ»، ويُشاهدانِ السُّفُنَ القادمةَ إلى الميناءِ، مِن بِلادِ الفلاندَرْ، وانجلترا، وبسْكايَة، والبُرتُغالِ، وبوليه، وصقليّةَ، وجنْوَه، والبُندُقيّةَ، وبلادِ اليُونانِ الخاضعةِ آنذاكَ لحُكمِ السُّلطانِ العُثمانيّ سليمٍ الأوّلَ، سُلطانِ الأتراكِ.

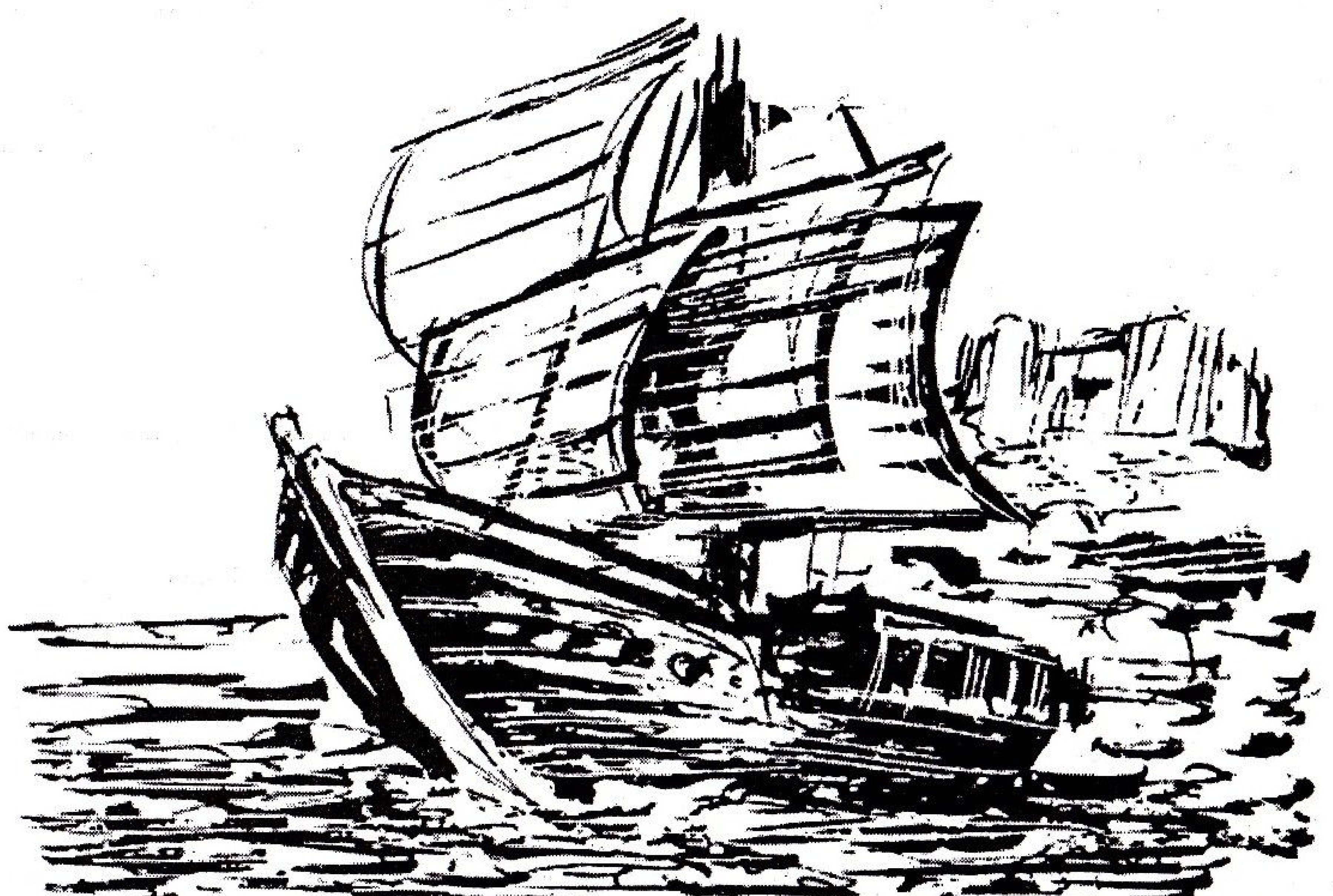

وحينَ انقضَى عامَا النّفيِ، عَزَمَ الحسنُ عَلى العَودَةِ إلى فاسٍ، معَ زَوجَتِه نورُ، وكانَتْ قدْ أنجَبَتْ لَهُ ابنةً، أسمَيَاهَا: «حياةَ»، فَركِبَا البحرَ مِنَ الاسكندريّةِ، عَلى ظَهرِ مَركَبٍ تجاريّ مُدجَّجٍ بالسِّلاحِ، خوفًا مِن غاراتِ قراصِنةِ الفرنجةِ، في البحرِ المتوسِّطِ.

ارحلْ بسُرعة

اجتازَ الحسنُ أسوارَ فاسٍ، فِي موكبٍ حافلٍ، تَصدَحُ حولهُ الموسيقى والأغاني، ولكنّه سَرعانَ ما عادَ إلى تواضُعِه، حينَ رأى قَصرًا لَهُ، كانَ قد شرَعَ في بنائِه، كانَتْ جُدرانُه تغطّيها الأعشابُ، وجَوانبُه تسرَحُ فيها الأفاعِيّ والحَشَرات، وأمَرَ الحسنُ العازفينَ بالكَفِّ عَن العزفِ والمُغنّينَ بالتّوقُّفِ عَنِ الغناءِ.

وفِي بيتِ الأهلِ رحّبَتْ آمُّه «سَلْمَى» بالحسنِ وزوجَتِه وعانَقَ الحسَنَ ابنتَهُ الصَّغيرةَ «ثروةَ»، وعَرَفَ الحسنُ أنَّ أباهُ قد ودّعَ الدُّنيا قَبلَ عام، فجلسَ حَزينًا عليهِ، وصاحَتْ به أمُّهُ:

– ارحَلْ بسرعةٍ مِن فاس. فسُلطانُ المغربِ يطلبُ رأسَ هارونَ، وأختِكَ مريمَ، لتمرُّدِهما ضدّهُ.

وسارَعَ الحسنُ بالرَّحيلِ مَع «نورٍ» فِي ظلامِ اللّيلِ، مُصطَحِبًا معهُ أمّه، وابنَتَيْه: ثروةَ، وحياةَ، مُتّجهًا صوبَ مدينةِ «تِلمسانِ» مُتَجنِّبًا الطُّرُقَ التي يَتَحارَبُ فيها جُنْدُ المغربِ والبُرتغالِ.

العودةُ إلى مصرَ

فِي خيمةٍ عسكريّةٍ بتلمسانَ، تَقابَلَ الحسنُ معَ صَديقِه «هارونَ»، وقائِده «عروجَ» وقَدمَ هارونُ لعروجٍ صَديقَهُ الحسنَ كشاعرٍ وسفيرٍ. وتركَ «الحسنُ» أمّهُ وابنتيهِ عندَ أُختِه مريمَ، وركِبَ مَعَ «نور» سفينةً مبحرةً فِي البحرِ المتوسّطِ إلى الاسكندريّةِ، قاصدًا أداءَ فريضةِ الحَجِّ.

وقَضَى الحسنُ ونورُ ثلاثةَ أشهرٍ بالاسكندريّة، احتلَّ السُّلطانُ سَليمُ خلالَها مَدائنَ: غزّةَ، طبريّةَ، ودمشقَ، حَماةَ، حَلَبَ، وهزَمَ سُلطانَ مصرَ «قانصوه الغوزي» في مَعركَةِ «مَرْجِ دابِقٍ» وسقطَ «قانصوه» عَنْ فَرَسِهِ مُصابًا بالفالجِ (الشّللِ)، ولَم يلبثْ أنْ صعدَتْ روحُه إلى خالقِها. ونهضَ «طومان بَاي» مِن بَعدِه، بتَجميعِ قُوى جَيشِ عَمِّه المَهزومِ، دِفاعًا عَن مصرَ، لكنَّ السُّلطانَ «سَليم» هَزَمَهُ، وقَبَضَ عليهِ، وشَنَقَهُ علَى «بابِ زويلةِ»، ثمَّ عادَ إلى القسطنطينية، تاركًا حكمَ مصرَ لأعوانِه الأتراكَ، والمماليكِ البكَوَاتِ.

وأدّى الحسنُ و«نورُ» فريضةَ الحجِّ، وزارَا المدينةَ، ثُمَّ رَحلاَ شَمالاً إلى تبُوك، فالعقَبَة، فمدينة غزّةَ، ومِنْ ساحلِ فلسطين، ركِبَ الحسنُ ونورُ مركبًا صَغيرًا مبحرًا إلى تونسَ، وكانَ المركبُ لبحّارٍ خبيرٍ مُحبٍّ للتّجارةِ والأسفارِ، اسمُهُ «عبادَ». وأنِسَ كلٌّ مِن الحسنِ وعبادٍ

لصَاحبِه، فصارَا صَديقَيْنِ، وراحَا يتحدّثانِ طَوَالَ الرّحلةِ عَن أحوالِ العربِ والمسلمينَ، وأخطارِ العثمانيّينَ والفرنجَةَ، حَتّى وَصلاَ إلى جَزيرَةِ «جرِبَة» شماليّ تُونس.

الأسيرَانِ

توقّفتِ المركَبُ لقضاءِ اللّيلِ، والتزوُّدِ بالماءِ والطّعامِ، ونزلَ الصّديقانِ إلى شاطئِ الجَزيرةِ يتنزَّهانِ، ويَسمُرانِ، عرفًا مِنَ السُّكّانِ أنَّ البُرتُغاليّينَ قَدْ قَتَلُوا «عَروجَ»، وعلقُوا رَأسَهُ ذِي اللِّحيةِ الحَمراءِ بميدانِ «وهرانَ». وقَلِقَ الحسنُ علَى مَصيرِ أمِّهِ سلمَى، وأختهِ مَريَمَ وابنتيْهِ: ثروةَ وحياةَ، وصَديقِه هَارُونَ.

وفِي طَريقِ العودةِ إلى السَّفينةِ، فوجِئَ الصّديقانِ برجالٍ مسلّحينَ بالسُّيوفِ، يَهجُمُونَ عليهمَا فِي ظَلامِ اللّيلِ، ويكمِّمُونَهما، ويغمُّونَ عيونَهما، ويوثِقُون أيديَهما وأرجُلَهما بالحِبالِ، ثمَّ يحملانِهما إلى حيثُ لا يدريَانِ، فأدركَا أنّهمَا قَد وَقَعَا أسيرَيْنِ في أيدِي قراصنةِ الفرَنجَةِ.

كانَ آسرُ الحسنُ عَباد، هوَ القرصانُ «بيتْرُو بوفاديليَا»، وكانَ صقلِيًّا في السّتينَ مِن عمرهِ، وحملَتْ سفينةُ الأسيرَيْنِ إلى ميناءِ

«نابولي»، ثمّ حملتْهُمَا عربةٌ تجرُّهَا الجيادُ، ويقودُهَا «بيترو» إلى مدينةِ «رُوما». وفِي رومَا فَرَّقَ «بيتْرو» بَينَ الصّديقَيْنِ.

وَوَجدَ الحسنُ نَفسَهُ سَجينًا فِي زنزانةٍ، مَكَثَ بِها شُهورًا وَحيدًا، لا يَسمعُ ضَحكَةَ حارسٍ، أو سقُوطَ حجرٍ في نهرِ «التيبر»، أو صوتَ مؤذّنٍ يَعرفُ منهُ ليلَهُ مِن نَهارِه، ويفتَقدُ صَديقَهُ عبّاد، وزوجتَه نُورَ، وأسرتَه الصَّغيرَةَ.

فِي الفاتيكَانْ

وذاتَ صَباحٍ، فُتِحَتِ الزّنزانةُ، واقتادَهُ «بيتْرو» خارجَهَا، فبَهَرَهُ ضوءُ النّهارِ السّاطعِ. وأُركِبَ الحسنُ عَربةً يقودُها جوَادان، اجتازَتْ بِه أسوارَ الفاتيكَانَ. وقالَ «بيتْرو» للحَسنِ:

- ستُقابِل البابَا «ليُو العَاشر»، فقدْ أهديْتُكَ إليه، تَكفيرًا عَنْ خَطايَايَ، فأحسنْ مخاطبةَ البابا ليُو، إذا كُنتَ تُريدُ أَنْ تَظلَّ حيّا، وتَعيشَ في رُوما عَزيزًا مُكَرَّمًا.

في مكتبةِ قصرِ القدّيسِ أنجلُو الاسطوانيّ، رأى الحسنُ البَابَا.

كانَ البَابَا ذَا وجهٍ أمردَ (بلا شَعرٍ)، وذقنٍ بغمازةٍ، وشفَتينِ سَمينَتينِ، وصافَحَ البَابَا بيدٍ ناعمةٍ ملساءَ يدَ الحسنِ ودَارَ الحَديثُ

بينهما عبرَ مُترجمٍ. وأعجبَ البَابَا بثقافةِ الحسنِ الواسعةِ، وحَذَره في الإجابةِ، فقالَ لَهُ:

– من اليومِ أنتَ حرٌّ في التّجوُّلِ بالفاتيكانِ وروما نَهارًا، وعليكَ أنْ تُلازِمَ غرفتَكَ لَيلاً بهذَا القصرِ. وإذا أحسنْتَ التَّصرُّفَ بيننَا سنمنَحُكَ حرّيّتَكَ يومًا مَا.

وفي حَدائقِ الفاتيكانِ، وعَلى جدرانِ الكنائسِ وسقُوفِهَا، رأى الحسنُ رُسومًا وتماثيلَ مَهيبَةً، ورأى الكرادلَةُ (جمعُ: كرْدينال) ذَوي الثّيابِ الحَمراءِ. وبعدَ أسبوعٍ واحدٍ، وفِي حفلٍ حاشدٍ، قالَ البَابَا للحسنِ:

– اليومَ نمنَحُكَ حرّيّتَكَ أيُّهَا العَربيّ، عَلى ألاَّ تُغادرَ رُومَا، ولا بلادَنَا. وقَدْ نسَبْتُكَ إلى أسرَتي، أسرةُ: مديتّيشي، وخلعْتُ عليكَ اسمًا جَديدًا لكَ هوَ: ليُونْ جيوفَاني مديتيشي. وخَصَّصْنَا لكَ ثلاثةَ معلمّينَ مِن الكرادلَةِ، ليعلموكَ اللُّغاتِ: اللاّتينيّةِ، والتُّركيّةِ، والعِبريّةِ، والإيطاليّةِ، في مقابلِ أن تعلّمَ العربيّةَ بدورِكَ لسبعةِ طُلاّبٍ في كلّ عامٍ. وقَدْ مَنَحْنَاكَ «دُوكَا» ذَهبيّةً راتبًا شهرِيًا لنفقاتِكَ الشّخصيّةِ.

كِتابٌ.. وزوجةٌ

خلالَ عامِه الأوّلِ، أتقنَ الحسنُ اللُّغاتَ الأربعَ، وعلَّمَ العربيّةَ لعشرةِ طُلاّبٍ، كانَ بينَهُمْ طالبٌ ألمانيّ اسمُه «هانز»، وصَارَ هوَ و«هانْز» صديقَيْن، فَتعلَّمَ الحسنُ منهُ الألمانيّةَ، وعرَّفَهُ «هانز» إلى فَنّ الفنّانين: رفايلُّو، ومَايكَلْ أنجلُو، وحدَّثهُ طَويلاً عَن الرّسّامين والمثّالينَ في إيطاليَا، وهوَ يتجوَّلُ بهِ بينَ الكنائسِ، والآثارِ الرُّومانيةِ وراءَ الكوليزيه. وأهداهُ البَابَا كِتابًا مَطبوعًا بالعربيّةِ، وقالَ لهُ:

– هَذا هُوَ أوّلُ كتابٍ بالعربيّةِ، يخرُجُ مِن أوّلِ مطبعةٍ في بلادِنَا، وبلادُكَ لا تعرفُ المطابعَ بعدُ، فاحفظْهُ بعنايةٍ فائِقَةٍ، وبوسْعِكَ، مِن اليومِ، أنْ تُقيمَ بمنزلٍ خاصٍّ بكَ في مَدينةِ روما.

وقَرأَ الحسنُ عَلى غِلافِ الكِتابِ عُنوانَهُ: «دعاءُ الأيّامِ». أُنْجِزَ في مدينة «فَانُو»، في كُنفِ (رعاية) قداسَةِ البَابَا ليُو العاشرِ.

ووجدَ «هانْز» منزلاً لهُ حديقةٌ برُومَا، فانتقلَ لسُكناهُ، وراح يَجُوب معَ «هانْز» أنحاءَ رومَا، ويَرَى شوارِعَهَا، وحَاراتِها، وأزقَّتِها، وحُوَاتِها المشعوذينَ، وقصورَ الكرادلَةِ الفخمةَ المُترَفَةَ. ودُعِيَ ذاتَ

مَساءٍ إلى حفلٍ أُقيمَ في كَنيسةِ «سِكِسْتين» ورأى بجانبِ البابا فتاةً وَسيمةً، وتذكّر الحسنُ أنّهُ رَآها معَ البابا يومًا في ثِيابِ راهبةٍ. وقالَ البابا للحَسنِ:

– هذهِ هي الرّاهبة «مادلينا»، وهي يا بُنيّ لَمْ تُخلَقْ للدّيرِ والرَّهبنةِ، وقدْ رأتْكَ وأحبّتكَ، ويَبدُو أنَّها خُلِقَتْ لأجلِكَ، وإنْ تزوَّجتَها أجْرَيْنَا عليكُمَا راتبًا شهريًّا.

وقَبِلَها الحسنُ زوجةً، وصَحِبَها معهُ إلى بَيتِه بروما، لكنَّ سعادَتَهما لَمْ تَدُمْ لَهُمَا سِوَى عامٍ واحدٍ. فقد تُوُفِّيَ راعيها البَابا: ليُو العاشِرُ.

وجهُ عبّاد

قطعَ البَابَا الجديدُ جميعَ الرّواتبِ الجاريةِ من الفاتيكان، لدعْمِ الحَملاتِ الصّليبيّةِ الاستعماريّةِ عَلى الشّرقِ، بلْ وفي داخلِ أوربا ذاتِها، وللحَدِّ مِن تَشهيرِ اللوثَريّين، دُعَاةِ مذهبِ «مارتن لوثَرْ» البروستانتي، الذينَ يفجّرونَ بمذهبهم صراعاتٍ شعبيّةٍ ودُوليّةٍ حادّةٍ في أرجاءِ أوربَا، متأثّرينَ في مذهبِهم بالفلسفةِ العَقلانيّةِ للفَيلسوفِ العربيّ: ابنُ رشدٍ. وراحَ المئاتُ مِنَ الفنّانينَ والأُدباءِ والتُّجّارِ، يفرُّونَ

مِن رُومَا، هَربًا مِن دعوةِ البابَا الجَديدِ للزُّهدِ والتّقَشُّفِ، وعِدائِه للأدبِ والفنّ.

وراحَ الحسنُ يكسبُ عيشَه في «رومَا» صيفًا، وفي جامعةِ «بولونيا» شتاءً، مِن تدريسِ العربيّةِ والأدبِ العربيّ، ويتنقّلُ طوالَ أعوامِه بإيطاليا بينَ المدينتَيْنِ. وذاتَ يومٍ عَرضَ عليهِ الكاردينَالُ «يُوليُوسْ» لوحةً للبيعِ، وكانتِ اللّوحةُ لوجهٍ عربيّ مِن رسمِ الفنّانِ «مانولُو». عندئذٍ صاحَ الحسنُ:

– هذهِ هي صورةُ صديقِي عباد البَحّارُ.

واشتَرى الحسنُ اللّوحةَ مِن الفنّانِ «مانولو»، وعرَفَ منه عنوانَ عبادٍ بمدينةِ «نابولي». وقالَ «مانولو» للحسنِ:

– عبادُ الآنَ مِن أغْنَى صَانِعي السُّفُنِ في نابولِي، وهوَ يقضِي الشّتاءَ والخَريفَ في حارةٍ بحيِ «سانتاكوشْيا»، ويسافرُ دائمًا في الرَّبيعِ والخَريفِ، معَ سُفنه، بينَ شطآنِ البحرِ المتوسّطِ.

ليلة المطرِ

وكتبَ الحسنُ رسالةً إلى عبادٍ، فجاءَ إليهِ ليلاً بعدَ شهرينِ، في عربةٍ يجرُّهَا أربعةُ جيادٍ، يتبعُه ثلاثةٌ مِن الخدمِ النّابوليّين. وجلسَ الصَّديقانِ للعشاءِ معَ مادلينَا. وقالَ عبادُ للحسنِ:

– باعَني آسرُنا «بيترُو» لتاجرٍ مِن نابُولي، فخدمتُه بإخلاصٍ في تجارَتِه البحريّةِ، فَربِحَ مِن وَرائي مالاً كَثيرًا. ولذلكَ مَنحني حرّيّتي، وأشركَني في تِجارَتِه عبْرَ البحرِ المتوسِّطِ. ولنَا الآنَ فِي موانِيه عشرةُ مكاتبَ تجاريّةٍ. وأزورُ تونُسَ في كلِّ عامٍ. وأهلُكَ يا صَاحِبِي مُقيمونَ بِها الآنَ. وقدْ رَحلَتْ زوجَتُكَ «نور» عائدةً إلى القُسطنطينية، وتَركتْ وَراءَها ابنَتَكَ حياةَ معَ أُمِّكَ وأُختِكَ مريمَ. وصَديقُكَ هَارونَ ذهبَ إلى القسطنطينيةِ، والتَحقَ بحاشيةِ السُّلطانِ.

وكانَ المطرُ يهطلُ شَديدًا في طُرقاتِ رومَا، وحَديقةِ البيتِ. وحمَّلَهُ الحسنُ رسالةً إلى أهلِه بتونسَ، وطلبَ منهُ أن يعرِّفهم بأحوالِه في رومَا، وأن يأتِي معهُ مِن تونسَ بأوراقِه وكتُبِه، حينَ يعودُ إلى رومَا. وقالَ لَه عبادُ بحُبٍّ:

– إذا احتَجتَ يومًا إليَّ يا صَديقي، فمنزلي بنابُولي مفتوحٌ لكَ ولأسرَتِكَ، ومَراكِبي قادرَةٌ علَى نَقلِكَ إلى أيِّ مكانٍ.

عَامَانِ فِي السّجنِ

كانَ الحسنُ قَد بلغَ مِن العمرِ أربعًا وثلاثينَ سنةً، حينَ أصدرَ البابَا الجديدُ أمرًا بحلقِ كلِّ مدنيٍّ للحيَتِه. واستجابَ أهلُ رومَا للأمرِ البَابَوي، عَدَا الحسنُ وراحَ يتجوّلُ بلحيَتِه في رومَا ويجلسُ بلحيَتِه في مكتَبَةِ الفاتيكان، ويذهَبُ بلحيَتِه إلى جامعَةِ «بُولونيا» وهوَ يشعرُ بدهشةِ النّاسِ مِن حَولِه، وبأنَّه مراقَبٌ مِنْ عيونِ البَابَا في اللَّيلِ والنّهارِ.

ومعَ الخَريفِ، عادَ عبادُ إلى الحسنِ، كانَ حَليقَ اللِّحيَةِ. وكانَ يصحَبُ معَهُ كتبَ الحسنِ وأوراقَهُ. وقالَ عبادُ للحَسَنِ:

– اطمئِن علَى أهلِكَ بتونسَ، فَصَديقُكَ هَارونُ يُرسِلُ إليهِم بالمالِ بانتِظامٍ. واعلَمْ أنَّ السُّلطانَ العُثمانيّ سليم الأوّلَ قَدْ ماتَ منذُ عامينِ. وأنَّ «سليمانَ القَانونيّ» صارَ سُلطانًا بَعدَهُ وهوَ سُلطانٌ عَجيبٌ حَقًّا، فقد أطلقَ مِنَ السّجنِ سراحَ الأعيانَ، وألحقَهم بحاشيَتِه. وسراحَ المَساجينَ وألحَقهم بجيشِه، وهوَ الآنَ مَشغولٌ بفتّحِ جزرِ البحرِ المتوسِّطِ.

وإثْرَ مُغادَرةِ عبادُ بيتَ الحسنِ بروماَ، فوجِئَ الحسنُ بجُندِ الفَاتيكان يقتحِمُونَ عليه بيتَهُ، ويفتّشُونَهُ، ووجَدُوا في عباءَتِه مَنشورًا

ضدَّ البَابَا لا يعلمُ عنهُ شيئًا، فقدْ دسّه لهُ في جَيبِه أحدُ العيونِ (المخبرينَ). وسيقَ الحسنُ ليُحبَسَ في زنزانةٍ بالقصرِ الاسطوانيِّ للقدّيس أنجلُو، في يومِ الأحدِ السّابعِ مِن شَهرِ ديسمبر، عامَ ألفٍ وخمسمائةٍ واثنينِ وعشرينَ ميلاديّةً.

ودامَ حبْسُ الحسنِ مدَّةَ عامينِ، أُطلِقَ بَعدَهُمَا سَراحَهُ، وكانَ لا يزالُ مُحتَفِظًا بلحيَتِه، فَلَمْ يتقدَّم أحدٌ لحلْقِهَا لَهُ. وخَرجَ الحسنُ مِن السجنِ، فوَجَدَ أنَّ «بَابَا» جَديدًا هو الذي أطلقَ سراحَهُ، وهوَ البابَا كليمانُ السّابعِ.

سفيرُ الفاتيكان

وعادَ الحسنُ إلى زَوجَتِه مادلينَا، فوجدَهَا قَد أنجبَتْ لهُ ابنًا أسمَتْهُ: يوسفَ، وصارَ لهُ مِن العمرِ عامٌ ونصفٍ. ودُعِيَ الحسنُ لمقابلةِ البَابَا كليمانَ، وقالَ لهُ البَابَا:

– لقدْ عيَّناكَ مُستَشارًا لَنا، وسَفيرًا في بَلاطِنا. فاستعدَّ للسّفَرِ إلى مدينةِ «باقية» لتلتقي بهارونَ باشَا، سفيرِ السُّلطانِ العُثمانيّ، أثناءَ مقابلتِه للملكِ، «فرانسُوا» ملك فرنسَا، وتَبذَلَ جهدَكَ مَعَ السّفيرِ العُثمانيّ، لإصلاحِ العَلاقاتِ بينَ الفاتيكانِ والعُثمانيّينَ. وأرجُو ألاّ يكونَ سجنُكَ قَد أثّرَ في روحِكَ.

فقالَ له الحَسنُ:

– بلْ كانَ خيرًا وبركةً عليَّ. فقدْ وضعْتُ فيهِ قَاموسًا للألفاظِ اللاّتينيّة والعربيّةِ والعِبريّةِ، التي تدلُّ عَلى معنًى واحدٍ. وألَّفتُ فيهِ كِتابًا في النّحوِ والصَّرفِ.

وضَحِكَ البَابَا سَعيدًا بالحسنِ. وغادَرَ الحسنُ قصرَ الفاتيكانَ ليستعدَّ للسَّفرِ إلى «باقية»، عبرَ طريقٍ يمرُّ بمدينةِ «بولونيَا»، في عربةٍ فخمةٍ، تجرُّها الجيادُ.

وفشلَتْ سَفْرَةَ الحسنِ إلى «باقية»، فركبَ عربَتَهُ عائدًا إلى رُومَا، وكانَ قَد بَلَغَ مِن العمرِ سبعًا وثَلاثينَ سنةً. وفي الطّريقِ هبّتْ عاصفةٌ ثلجِيّةٌ، فجمحَتِ (نَفرَت) الجيادُ، وانقلبَتْ العربةُ، وكُسِرَ ساقُ الحسنِ، فاضطرَّ للبقاءِ في بولُونيَا، فِي منزلٍ قَريبٍ مِن جامعَتِها، وكانَ الشّتاءُ قارسًا، ولحُسنِ حَظِّ الحسنِ، أنَّهُ كانَ يحملُ معهُ دائمًا دَفاترَهُ التي دوَّنَ بِها مُلاحَظاتِه، فانتَهزَ فُرصَةَ مَرضِه، وَراحَ يَكتُبُ طَوالَ تسعةَ أشهُرٍ موسوعةً ضخمةً عَن «وصفِ إفريقيّة». وكانتْ زوجَتُه وابنُه قَد لَحِقَا بِه مَع بدايةِ الرَّبيعِ، وبَقِيَا مَعَهُ إلى نِهايةِ الصَّيفِ. وكانَ سَعيدًا بزياراتِ أصدِقائِه لَهُ، مِن طلاّبِ الجامعَةِ البُولُونيّةِ، وأساتذَتِها.

وصفُ افريقيَّة

أنجزَ الحسنُ، في تسعةِ أشهرٍ، في تسعةِ أجزاءٍ، في ألفِ صفحةٍ مِن القطعِ الكَبيرِ، وباللُّغةِ الإيطاليّةِ، مَوسوعتَهُ عَنْ «وصفِ افريقيّةَ والأمورِ المتعلّقةِ بهَا». وقالَ الحسنُ لزوجَتِه «مَادلينَا»:

– هذهِ الموسوعةُ تعادلُ عندِي مقدّمةَ ابنُ خلدونُ. كتبَ ابنُ خلدونُ مقدّمتَهُ في أربعةِ أشهرٍ، وكتبتُ أنا مَوسوعَتِي في تسعةِ أشهرٍ، وهي أضعافُ مقدّمةِ ابنُ خلدونِ.

فقالتْ لهُ «مادلينَا»:

– كَتبتَ مَوسوعَتَكَ بالإيطاليّةِ، فكيفَ يقرؤها قَومُكَ، وهي بغيرِ لُغَتِهِم؟

وعَزَمَ الحسنُ على ترجمةِ موسوعتَهِ إلى العربيّةِ، إثرَ عَودَتهِ إلى رومَا، معَ نهايَةِ الصَّيفِ. وفي رُومَا تفرَّغَ الحسنُ لوضعِ اللَّمساتِ الأخيرةِ لموسوعَتِه، وتَرجَمَتِها إلى العربيّةِ. وكانَتْ رومَا تُعاني مِنَ الهَزائمِ، وانتِشارِ الجَرائمِ، وعُنْفِ الصِّراعاتِ الأوروبيّةِ.

.. إلاّ الكتب

وسَعَى الحسنُ حتَّى التقَى بصديقِه «هانْز»، ليساعِدَهُ عَلى الهَرب مِن روما، التي يُحاصِرُها الجندُ، معَ أسرَتِه وكُتُبِهِ، فقالَ لهُ «هانزْ» بحسمٍ:

– خُذْ معَكَ أسرتَكَ، ومالَكَ، وثِيابَكَ، وتُحفَكَ.. إلاّ الكتُبَ، فهي ملكُ أوروبَا الآنَ، ونحنُ بحاجةٍ إليها لنعرفَ أرضَ الجنوبِ وأهلَهُ. ولا فُرصَةَ أمامَكَ، ولا أمامَنا، لنسْخِهَا لكَ، وقدْ لا يكونُ بوسعِي حمايَتُكَ إذْ بقيتَ لتنسخَهَا. ولا إخراجَكَ مِن روما في أيِّ وقتٍ آخرَ.

ورضخَ (أطاعَ) الحسنُ لأمرِ «هانزْ» في رحلةٍ مغامرةٍ إلى نابولِي، بعدَ أنْ أودعَ كتُبَ الحسنِ، في مكتبةِ الفاتيكانِ. واستقبلَ عبادٌ صَديقَهُ الحسنَ وزَوجتَه وابنَه، وعجَّلَ بالرَّحيلِ معهُ إلى تونسَ، عَلى ظَهرِ أجملِ السُّفُنِ وأكبرِها، وأكثَرِها سِلاحًا وذَخيرة. وعادَ «هانزْ» إلى رومَا.

وفي مكتبةِ الفاتيكانِ، راحَ هانزْ يستعرضُ، بسعادةٍ، الكتُبَ التي تركَهَا الحسنُ مرغمًا وراءَهُ، وقدْ دوَّنَ عَلى غِلافِها الدّاخليّ تَواريخَ كِتابَتِها: «تراجِمُ الأطبّاءِ والفلاسفةِ العربِ» (1527). «الفقهُ الإسلاميّ أو شَريعةُ محمّد» (1525)؛ «النّحوُ والصّرفُ»

(1523). «وَصفُ افرقيّة والأمورُ الهامّةُ بها» (1526) «قاموسُ الألفاظِ» (1526).

وتوقّفَ هانزْ عِندَ كتابِ «وصفِ افريقيّة». كانَ موسوعةً عَن ممالِكِها وسُكّانِها، ولُغاتِها، منَاخِها، وزراعَتِهَا وأَرضِها، ومَعادنِها وعاداتِها، وأنهَارِها وبُحَيراتِها، وجِبالِها وسُهولِها، وحُكّامِها وأزيائِها، ونُظمِها وأمْراضِها، مملكةً مملكةً، وشعبًا شعبًا، وهَمسَ «هانزْ» قائلاً لنفسِهِ: «انتصَرتْ أوربا بأسرِها للحسنِ، فقدْ فتحَ لَها مِن حيثُ لا يَدري الطّريقَ إلى افريقيّة».

شمسٌ شَتوِيّةٌ

في جزيرةِ «جربةَ» رسَتْ سفينةُ عبادَ، وركِبَ الحسنُ وأسرتُه قاربًا صَغيرًا إلى أرضِ تونُسَ، وركِبَ عبادُ في البرِّ جوادًا معَ جيادِهم، تتبعُهم بغالُ الحملِ، واتَّجَهُوا شمالاً علَى طريقِ القوافلِ، إلى أن وصلُوا إلى مدينةِ تونسَ.

ولم يجدِ الحسنُ مِن أهلِه بالمدينةِ، فأمُّهُ قَد ودَّعَتِ الدُّنيَا، وأختُه قَد لحقتْ مَعَ أولادِها بزوجِهَا هارُون، ابنتَاهُ: ثروةُ وحياةُ، قَد تزوَّجَتَا مِن ابنَيْنِ لهارُونَ، ورَحَلتَا معَ الرّاحلينَ. وقالَ الحسنُ لمادلينَا، وهُمَا جالِسانِ في ساحةِ بيتٍ تونِسيٍّ، في ضِياءِ شمسٍ شَتويّةٍ:

- هنَا المقامُ بإذنِ اللّه. وهنَا سأكتبُ بمشيئةِ اللّه كتابًا آخرَ عَن وصفِ أوروبا، ولعلَّ كتابيّ «وصفُ افريقيّةُ» أن يصلَ يومًا إلى قَومي، مِن بَعدي.

وعادَ عبادُ معَ سَفينَتِه إلى «نابُولي»، وبَقِيَ الحسنُ في تونُسَ وَحيدًا إلاّ مِن زَوجَتِه وابنِه، حَريصًا علَى ألاّ يعرفَ عنهُ أحدٌ شيئًا، ويعزم في كلّ يومٍ أن يكتُبَ عَنْ «وصفِ أوروبا» ولاَ يَخُطَّ في ورقةٍ

عنها حرْفًا. ولا يعرفُ أحدٌ، على وجهِ اليقين، إنْ كانَ وداعُه للدُّنيا في تونس، أو في فاس، في عامِ ألفٍ وخمسمائةٍ وسبعةٍ وثلاثين، أوْ في عامِ ألفٍ وخمسمائةٍ وخَمسين، فقدْ اختلَفَتْ في ذلكَ الرِّواياتُ والأخبارُ.

* * *

في الغربِ، نُشرَ كتابُ «وصفِ افريقيّة» بالإيطاليّةِ عامَ ألفٍ وخمسمائةٍ وخمسينَ ميلاديّةٍ، وباللاّتينيّةِ والفرنسيّةِ عامَ ألفٍ وخمسمائةٍ وستّةٍ وخمسينَ ميلاديّةٍ، وبالأنجليزيّة عامَ ألفٍ وستّمائةٍ ميلاديّةٍ، وبالهولنديّةِ عامَ ألفٍ وستّمائةٍ وخمسةٍ وستّينَ ميلاديّة، وبالألمانيّةِ عامَ ألفٍ وستّمائةٍ وخمسةٍ ميلاديّةٍ.

وفي الغَربِ، كَتَبَ «فيدمانشْتاتْ» عَن الحسنِ بنُ محمدَ الوزانِ أو «ليون الأفريقيّ» عامَ ألفٍ وخمسمائةٍ وخمسةٍ وخَمسينَ ميلاديّةَ، ونُشِرَ ما كَتَبَهُ مرّةً أُخرَى، في مقدّمةٍ للتّرجمةِ الأنجليزيّةِ لكتابِ «وصفِ افريقيّة».

وفي الشّرقِ، عرَفَ العربُ قصّةَ الحسنِ الوزّانِ، وأسماءَ كتُبِه، ممّا كُتبَ عنهُ في المَوسُوعاتِ الغربيّة. وكتبَ عنهُ

القاضِي المغربيّ «محمّدُ بن المهدي الحجوي» رسالةً نشرَها بمدينةِ الرباط عامَ ألفٍ وتسعمائةٍ وخَمسة وثلاثين ميلاديّةَ، بعنوانِ: «حياةُ الوزّانِ الفاسيّ وآثارُه»، وكُتبتْ عنهُ مُقدّمةً بالإسبانيّة، نُشِرَتْ بمدينةِ «تَطوانِ المغربيّة»، تحتَ رِعايةِ «معهد فرانكو الاسبانيّ»، وكُتِبَتْ عنهُ روايةٌ بعنوانِ: «ليُو الأفريقيّ» كَتَبَها بالفرنسيّة، ونَشَرَها في بَاريس، الكاتبُ اللُّبنانيّ المغترب «أمينُ المعلوفُ»، وقدْ ترجَمَ هَذهِ الرِّوايةَ إلى العربيّةِ «أمين فريحة».

وفُقِدَتِ النُّسخَةُ العربيّةُ التي تَرجَمَها الحسنُ بنفسِه، لكتابِ «وصفُ افريقيّة»، مثلمَا فُقِدَتْ كُتُبُه الأُخرَى في الفقهِ، وفي النَّحوِ والصَّرفِ، ولَمْ يَبْقَ مِن كُتُبِه في الغربِ سِوَى رسالةً كَتَبَها باللاّتينيةِ، عَن تراجمِ الأطبّاءِ والفَلاسِفَةِ، وقدْ نُشِرَتْ هذهِ الرّسالةُ بمدينةِ «همبرجْ» عامَ ألفٍ وستّمائةٍ وأربعةٍ وستّينَ ميلاديّةٍ، ثمَّ أُعيدَ نَشرُها بعدَ ثلاثٍ وَثمانينَ سنةً. ولا تَزالُ النُّسخَةُ الأصليّةُ لقاموسِ الحسنِ للكَلماتِ موجودةً بمكتبةِ الاسكُوريالِ، وبخطِّ الحسنِ نفسِه، دونَ أنْ تَحظَى بنشْرٍ لَها إلى اليَوْمِ.

وتَبْقَى كتبُ هذَا العالمِ الرّحّالة «الحسنُ الوزّانُ» بحاجةٍ إلى تَرجمةِ ما بَقِيَ مِنها إلى العربيّةِ، حَتّى نُعيدَ لعالِمِنَا العربِيّ اسمَه العربيّ، ووجهَهُ العربيّ وننقذَهُ مِن غربةِ «ليون الافريقيّ»، فقدْ كانَ عالِمًا جغرافيّا، ومُؤرّخًا رحّالةً، وشاهِدًا علَى عصرِه، وآخرَ الرحّالةِ المسلمينَ العِظامَ.

المطبعة الحديثة للفنون المطبعية IMAG

الوزان

عالم عربي عاش في القرن السادس عشر الميلادي. تعلم فى جامعة القيروان. و جاب ممالك الزنوج بوسط افريقيا.
وأسره القراصنة فعاش فى روما والفاتيكان، وعلّم العربية وآدابها فى ايطاليا. وألف كتبا باللاتينية والايطالية فى النحو والصرف والفقه و تراجم الأطباء والفلاسفة ووضع أول قاموس لغوي بثلاث لغات، وكتب أول موسوعة عالمية عن إفريقية في تسعة أجزاء. إنها قصة تثير الفخار يقرؤها الصغار والكبار.

صدر من هذه السلسلة:

1- ابن النفيس
2- ابن الهيثم
3- البيروني
4- جابر بن حيان
5- ابن البيطار
6- ابن بطوطة
7- ابن سينا
8- الفارابي
9- الخوارزمي
10- الإدريسي
11- الدميري
12- ابن رشد
13- ابن ماجد
14- القزويني
15- ابن يونس
16- الخازن
17- الجاحظ
18- ابن خلدون
19- الزهراوى
20- الأنطاكي
21- ابن العوام
22- الطوسي
23- الكاشي
24- الوزان
25- ابن الرزاز
26- تقي الدين
27- الرازي
28- الكندي
29- الخليل
30- ابن حمزة
31- الزرنوجي
32- يوحنا بن ماسوية
33- ياقوت الحموي
34- ثابت بن قرة
35- ابن ملكا
36- ابن الشاطر

420

© Editions Anep
ISBN: 9947-21-280-7
Dépôt légal: 1700-2006